المدخل التاريخي

لتاريخ العمارة العربية وتطورها

شريف يوسف

دراسة وتقديم

د. أمجد عبد العزيز

الكتاب: المدخل التاريخي لتاريخ العمارة العربية وتطورها

الكاتب: شريف يوسف

دراسة وتقديم: د. أمجد عبد العزيز

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

يوسف ، شريف

المدخل التاريخي لتاريخ العمارة العربية وتطورها / شريف يوسف

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٦٥٥ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٧٩٣٢ / ٢٠١٨

المدخل التاريخي

لتاريخ العمارة العربية وتطورها





مدخل للقراءة .. دراسة وتقديم

عندما فرض الله الصلاة علي المسلمين أمرهم بالصلاة في مواقيت مُحددة؛ وكي لا يتخلف المسلمون عن الصلاة، ظهر الأذان ليُخبر الناس عن ميعاد كُل صلاة كي يستعدوا للصلاة؛

ومع اتساع رقعة الإسلام وانتشار الفتوحات الإسلامية كبر حجم المُدن التي يعيش فيها المُسلمون لذا وجب علي المُؤذن أن يقف فوق مكان مُرتفع كي يصل صوته لأقصى مكان بالمدينة الموجود بها المسجد؛ لذا بدأ الحُكام في رفع قامات المآذن كي تصل أصوات المُؤذنين لأقصى مدى بالمُدن التي يحكمونها.. وبالطبع حدث بالمثل داخل المساجد التي زاد بها عدد المُصلين وكي يصل صوت الخطيب واضحاً لآخر المسجد بنى المسلمون القباب داخل المساجد وتفننوا في تزيين هذه القباب والمآذن كي تكون في غاية الجمال والروعة..

مع تطور الزمان أصبح للعمارة الإسلامية طابع خاص تجده في المساجد، والمدارس الدينية، وفي مجموعة متنوعة من الأشكال بنفس النمط الأساسي؛ وتجد ذلك في فن النحت، وصناعة المعادن والعاج أو السيراميك؛ والتي تكون على أعلى التقنيات وعلى مستو كبير من الحرفية والدقة.

لا ترتكز العمارة الإسلامية على المساجد فقط؛ فالفن الإسلامي يُعتبر فنا حضاريا أكثر منه فنا دينيا؛ فإننا نجد فنون العمارة الإسلامية دخلت في شتى نواحي حياة الإنسان من بناء القصور والمتاجر والأسبلة، وبناء السدود والقناطر، وحتى أضرحة المقابر التي تجد فيها الفن المعماري الإسلامي الذي يتجلى في أبهى صوره.

من عظمة الحضارة الإسلامية وتكاملها أنها لم تُغفل عامل الجمال كقيمة مُهمَّةٍ في حياة الإنسان؛ فقد تعاملت معه من مُنطلق أن الإحساس بالجمال والميل نحوه مسألة فطرية مُتأصِّلة في أعماق النفس الإنسانية السويَّة، تلك التي تُحبُّ الجمال وتنجذب إلى كل ما هو جميل، وتنفر من القبح، وتنأى عن كل ما هو قبيح.

ولا ريب في أن الإبداع الجمالي يُشكِّل بُعْداً أساسياً في الحضارة الإنسانية، فالحضارة التي تخلو من عنصر الجمال، وتنتفي فيها وسائل التعبير عنه، هي حضارة لا تتجاوب مع مشاعر الإنسان، ولا تُشبع رغباته النفسية، والمشتاقة دائماً إلى كل ما هو جميل.

تُعْتَبَرُ الفنون بصفة عامَّة مظهراً مهماً من مظاهر الثقافة السائدة في المجتمع، وبصفة خاصَّة فإن فنَّ العمارة الإسلامي يُعَدُّ من أنقى وأدقِّ صور التعبير عن الحضارة الإسلامية، بل مرآة ناصعة للحضارة الإنسانية حيث يُعْتَبَرُ من أعظم الفنون التي أنتجتها حضارات العالم في القديم والحديث، وهو مع ذلك لم يَلْقَ من الدراسة والتحليل والشرح ما هو جدير به، بل إن كثيراً من الذين كتبوا عنه لم تكن كتاباتهم قائمة بالفعل

على المعايير الفكرية والثقافية التي قام عليها فنُّ العمارة الإسلامي، وإنما على معايير أخرى غربيَّة؛ فللعمارة الإسلامية شخصيتها وطابعها الخاصُّ المميِّز، والذي تتبيَّنُه العينُ مُباشرة، سواء أكان ذلك نتيجة للتصميم الإجمالي، أم العناصر المعمارية المميِّزة، أم الزخارف المستعمَلَة.

وقد نبغ المهندس المسلم في أعمال الهندسة المعمارية؛ حيث وضع الرسوم والتفصيلات الدقيقة والنماذج المجسّمة اللازمة للتنفيذ، إلى جانب المُقايسات الابتدائية، ولا شَكَّ أن كل هذا قد احتاج منه إلى التعمُّق في علوم الهندسة والرياضة والميكانيكا، تلك التي برع فيها المسلمون قديماً.

ومن أعظم إسهامات المسلمين في تقنيات العمارة الإسلامية نجد مسجد السلطان أحمد حيث نجد المسلمين قد برعوا في تشييد القباب الضخمة، ونجحوا في حساباتها المعقدة، التي تقوم علي طرق تحليل الإنشاءات القشرية، وهذه الإنشاءات المعقدة والمتطوّرة من القباب مثل قبة الصخرة في بيت المقدس وقباب مساجد الأستانة والقاهرة والأندلس تعتمد اعتماداً كُلِّياً على الرياضيات المعَقَّدَة، وكانت هذه القباب تُعطي شكلاً جمالياً رائعاً للمساجد، ويكفي أن تنظر إلى مسجد السلطان أحمد في إستانبول كمثال لهذا الجمال حتى تُدرك عظمة الحضارة الإسلامية.

والقباب من أهم مظاهر تطور الحضارة الإسلامية في فن العمارة، فلقد تطوَّرَتْ كثيراً، واتخذ تصميمها الهندسي أشكالاً مُختلفة، ومن أمثلة ذلك قبَّة المسجد الجامع بالقيروان، ومسجد الزيتونة بتونس، والمسجد

الجامع بقرطبة، وقد ظهرت آثار هذا التطور بوضوح في العمارة الأوربية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

أما عن تقنية الأعمدة فلقد كانت الأعمدة من أهم الأشياء التي تناولها الفن الإسلامي، وقد اتخذت تيجاناً وعقوداً مُدبَّبَة، وروابط خشبية، حتى إنه ظهر ما يُعْرَفُ بعلم عقود الأبنية، وقد أصبحت أقواس حدوة الفرس تدلُّ على الفنِّ المعماري الإسلامي، وإن وُجِدَتِ الأقواس قبلاً إلاَّ أنه قد تَغَيَّرَ شكلها على يد المسلمين.

وكذلك كانت المقرنصات من أبرز خصائص الفنِّ المعماري الإسلامي، وتعني الأجزاء المتدلِّيَة من السقف، والمقرنصات منها داخلية وخارجية؛ وقد انتشرت الداخلية في المحاريب والسقوف، وكانت الخارجية في صحون المآذن وأبواب القصور والشرفات.

أما المشربيات فقد كانت من مظاهر الفنِّ المعماري الإسلامي؛ حيث تجد المشربيات ظاهرة في جميع البيوت؛ وهي مخرمةً أو مزخرفة، وتُسمَّى قمرية إذا كانت مُستديرة، أو شمسية إذا كانت غير مُستديرة، أو حتى شيشاً، وهي من خشب خُرِطَ كستائر للنوافذ، من فوائدها أنها تُخَفِّفُ حِدَّة الضوء، وتُمَكِّنُ النساء من مُشاهدة مَنْ بالخارج دون أن يراهنَّ أَحَدٌ، وقد أصبح ذلك طابع البيوت الإسلامية.

كما أننا نجد المسلمين قد أرسوا قواعد علم جديد ومُستقل بذاته ألا وهو علم الصوتيات المعمارية حيث يَدِينُ العالم بنشأته وإرساء أصوله

المنهجية السليمة للمسلمين؛ وذلك بسبب تطوير تقنية الهندسة الصوتية، واستخدامها فيما يُعْرَفُ الآن باسم (تقنية الصوتيات المعمارية)، فقد عرفوا أن الصوت ينعكس عن السطوح المُقعَّرة، ويتجمَّع في بؤرة مُحدَّدة، شأنه في ذلك شأن الضوء الذي ينعكس عن سطح مرآة مُقعرة، وقد استخدم التقنيون المسلمون خاصية تركيز الصوت في أغراض البناء والعمارة؛ وبخاصة في المساجد الجامعة الكبيرة؛ ولنقل وتقوية صوت الخطيب والإمام في أيام الجمعة والأعياد؛ ونجد الأمثلة على ذلك كثيرة ومنها مسجد أصفهان القديم، ومسجد العادلية في حلب، وبعض مساجد بغداد القديمة؛ حيث كان يُصَمَّمُ سقف المسجد وجدرانه على شكل سطوح مُقَعَّرَةٍ، موزَّعة في زوايا المسجد وأركانه بطريقة دقيقة تضمن توزيع الصوت بانتظام على جميع الأرجاء.

إن هذه المآثر الإسلامية الباقية حتى اليوم لخير شاهد على ريادة عُلماء الحضارة الإسلاميةفي تقنية الصوتيات الهندسية المعمارية، وذلك قبل أن يبدأ العالم المعروف (والاس ك سابين) حوالي عام (١٩٠٠م) في دراسة أسباب سوء الصفات الصوتية لقاعة المُحاضرات في جامعة هارفارد الأمريكية، وتتبُّع سلوك الخواصِّ الصوتية للقاعات وحُجرات غُرَفِ الموسيقى؛ ولكي نَقِفُ على مدى أهمية تطوير المسلمين لتقنية الصوتيات المعمارية، تكفي الإشارة إلى أن خاصية تركيز الصوت، التي لفتوا الأنظار إلى فوائدها التطبيقية، تُستخدم في الحضارة المعاصرة كجزء أساسي من هندسة الصوتيات المعمارية؛ حيث تُزوَّد المسارح وقاعات الاحتفال الكبيرة بجدران خلفية مُقعَّرة تعمل على ارتداد الصوت وزيادة وضوحه.

وهناك أيضاً تقنية العقود، وهي التي تؤكِّد المراجع والدراسات التاريخية في مجال العمارة الإسلاميةأن أوَّل ما ظهر من عناصر وأشكال التقنيات الهندسية المعمارية عند المسلمين هو (العقد المنفوخ) الذي اسْتُخْدِمَ في المسجد الأموي بدمشق عام (٨٧ هـ/ ٧٠٦ م)، وعُمِّمَ استخدامه بعد ذلك؛ بحيث أصبح عُنصراً مُمِيِّزاً للعمارة الإسلامية، وخاصَّة في بلاد المغرب والأندلس، ثم اقتبسه البناة الأوربيون، وأكثروا من استخدامه في بناء كنائسهم وأديرتهم. وكذلك طوَّر المسلمون تقنية (العقود ثلاثية الفتحات)، والتي كان مصدرها فكرة هندسية بحتة قائمة على القسمة الحسابية، وهو ما استدلَّ عليه الباحثون من رسم باقٍ على جدار في أطلال مدينة (الزهراء) بالأندلس، وانتشر استعمال هذا النوع من العقود في الكنائس الإسبانية والفرنسية والإيطالية.

هناك أيضاً تقنية العقود المُفصصة، أو المقصوصة، وهي عقود قُصَّت حوافُّها الداخلية على هيئة سلسلة من أنصاف دوائر، أو على هيئة عقد من أنصاف فصوص، ولعلَّ هذا العقد المفصص قد اشْتُقَّ من شكل حافة المحارة، غير أنه اتَّخذَ من العمارة الإسلامية المظهر الهندسي البحت، وأصبح فيها ابتكاراً ظهر أوَّل ما ظهر فيما تبقَّى من الآثار في أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، واتَّضحت معالمه الهندسية كاملة في بناء قبة المسجد الجامع بالقيروان في سنة (٢٢١ هـ / ٨٣٦ م).. وقد احتفظ العقد المفصَّص بمظهره الهندسي في تطوُّره بعد ذلك بالرغم من تَعَدُّد أشكاله، ثم تشابكت العقود المفصَّصة في القرون التالية، وازداد عدد الفصوص، وتصاغرتْ وتداخلتْ فيها زُهَيْرَات ووُرَيْدَات، وأصبح شكلها

زخرفياً جذاباً، حُلِّيَتْ به المآذن والمحاريب؛ وإلى جانب هذه الأنواع من العقود ظهرت في العمارة الإسلاميةأشكال أخرى منها العقود المدبَّبة والصماء والمنفرجة، وقد انتشر استخدامها في بلاد المشرق والمغرب على السواء، وتُوجد أمثلة منها في العمارة الأوربية؛ فعلى سبيل المثال انتقل العقد المُنفرج إلى العمارة الإنجليزية، وعَمَّ استعماله في القرن السادس عشر الميلادي باسم (العقد التيودوري) بينما سَبَقَتِ العمارةُ الإسلاميةإلى استخدامه قبل ذلك بخمسة قرون في مساجد الجيوشي والأقمر والأزهر بالقاهرة.

من الجدير بالذكر أن جماليات العمارة الهندسية الإسلامية امتدَّت لتشمل القناطر المائية والجسور والقنوات، وكانت تقنياتها رائعة التخطيط والتنفيذ؛ وتُعطي الماء المارَّ في القنوات والأنهار بُعْداً جمالياً إضافياً عند المشاهدة، وهذا يعني أن العمارة الإسلامية وتقنياتها الهندسية والجمالية كانت مظاهر طبيعية لعصور الازدهار في حضارة الإسلام.

كما كان المعمار الإسلامي يعتمد على النواحي التطبيقية لِعِلْمِ الحيل (الميكانيكا)، وقد اتَّضح ذلك في إقامة المساجد الشاهقة، والمآذن العملاقة، والقناطر والسدود الضخمة العظيمة فوق الأنهار؛ كسدِّ النهروان، وسدِّ الرستن، وسد الفرات، وكذا في إقامة سور مجرى العيون بالقاهرة أيام صلاح الدين الأيوبي، والذي كان ينقل الماء من فم الخليج على النيل إلى القلعة فوق جبل المُقطم، وكانت ساقية تُدَار بالحيوانات

تَرْفَعُ المياه لعشرة أمتار ليتدفَّق في القناة فوق السور، وتسير بطريقة الأواني المستطرقة لتصل إلى القلعة.

كما كانت القلاع العربية من أهم الإضافات التي أخذها الغرب ونشروها في حضارتهم، كما تشهد بذلك زيجريد هونكه الكاتبة الألمانية، فلم يكن الغرب يعرف غير التقنية الدائرية في تصميم القلعة، ومُنذ أن دخل المسلمون الأندلس، ثم صقلية، ثم حدث الاحتكاك مع المسلمين في الحروب الصليبية، تغيرت النماذج المُتبعة في البناء إلى النموذج العربي، الذي يغلب عليه التصميم المُربع والمُزود في أركانه بأبراج المُراقبة والدفاع، وأحياناً توجد الأبراج في الأضلاع أيضاً.

إن روعة العمارة تُعبر عن روعة الحضارة التي أنشأتها، وذلك قانون تاريخي كما يقول ابن خلدون : "إن الدولة والمُلْكَ للعمران بمنزلة الصورة للمادَّة، وهو الشكل الحافظ لوجودها، وانفكاك أحدهما عن الآخر غير مُمكن على ما قُرِّرَ في الحكمة؛ فالدولة دون العمران لا يُمكن تصوُّرها، والعمران دونها مُتَعَذَّرٌ، فاختلال أحدهما يَسْتَلْزِم اختلال الآخر، كما أن عدم أحدهما يُؤَثِّرُ في عدم الآخر".

ومن أبرز من كتبوا في علم فن العمارة الإسلامية، العلامة "شريف يوسف"؛ وهو المُهندس العراقي الذي قضى حياته في دراسة هذا الفن العظيم وكتب فيه الكثير من المُؤلفات التي أثرت المكتبة العربية بالكثير من الكُتب المُتخصصة في هذا الفرع النادر من العلوم التي قلما تحدث عنها أحد بالرغم من روعتها وعظمة من قاموا بها.

والعلامة شريف يوسف هو أحد رواد الحركة الهندسية والآثارية في العراق، ولقد ترك الفقيد من الآثار المعمارية والفكرية ما يجعله علماً من أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث؛ واسمه بالكامل هو شريف يوسف بن مُحَمَّد بن حسين، من مواليد مدينة العمارة سنة ١٩٠٧ م، وإنه من أصول عربية وبالذات من عرب ديار بكر، وقد جاء جده حسين أفندي مع مدحت باشا، فقد رافق الوالي المصلح عند مجيئه إلى بغداد سنة ١٨٦٩م عددا من الرجال الأكفاء في شتى الشؤون الإدارية والفنية؛ وقد عُين حسين أفندي قائم مقام لقضاء قلعة صالح في لواء العمارة عند التنظيم الإداري للولايات في العراق، وسكن مدينة العمارة مع عدد من رفاقه مثل إبراهيم بك والد المرحوم يوسف إبراهيم وجميل أفندي والد المرحوم فؤاد جميل، كما سكن نفس المحلة فيما بعد والد المرحوم فائق السامرائي، ومن هؤلاء تكونت محلة شهيرة في مدينة العمارة باسم (السنية) غير بعيدة عن سراي الحكومة.

نال شريف يوسف شهادة الهندسة بتفوق، كما عُين مُدرساً في الثانوية المركزية (١٩٣٤م) لمدة سنة واحدة، وبانتهائها نُقلت خدماته إلى أمانة العاصمة على عهد أمينها المرحوم محمود صبحي الدفتري؛ وهناك ظهرت مواهبه الفذة وأفكاره الهندسية وكان له دور كبير في إنجاز الكثير من مشاريع الأمانة العامة مثل تنظيف منطقة الوزيرية وجعلها محلة سكنية عصرية بعد أن كانت (زورا مخيفا) كما اشترك في تخطيط منطقة السعدون وفتح شارع الأعظمية وشارع الشيخ عمر وشارع دمشق وشارع موسى

الكاظم وشارع أبي نواس، وأسهم في تنفيذ بهو أمانة العاصمة، وغيرها من الإنجازات الهندسية.

بعد ثلاث سنوات من العمل في أمانة العاصمة، نُقلت خدماته إلى مديرية الآثار على عهد مديرها ساطع الحصري، وقد وجد فيه كفاءة لا مثيل لها، وإخلاصاً نادرا، وغُرة وطنية فائقة، فألحقه في بعثة أجنبية كانت تقوم بالتنقيب في التلول السومرية في منطقة ديالي للإشراف على عملها، ومعرفة ما تلتقطه من آثار لوضع اليد على المهم منها.

بعد سنوات كُلف برئاسة العمل التنقيبي في مدينة سامراء قريباً من قصر العاشق، فعثر على آثار خطيرة منها القصر المعروف بقصر الجص، وأسهم في ترميم وإحياء مواقع أثرية كثيرة مثل: القصر العباسي، وخان مرجان، وملوية سامراء، وقصر الأخيضر، ودار الإمارة في الكوفة.

وبسبب عمله الدءوب والمُتعب في العمل الأثري في ظروف طبيعية قاسية أصيب بالمرض فأعفي من العمل في الآثار وعُين مُدرسا في الثانوية المركزية؛ ثُم مُديراً لها، وبعد سنة عُين مُديراً لدار المُعلمين الابتدائية، ثُم مُديراً للتعليم المهني، ثُم عميداً لكلية الهندسة؛ إلى أن أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٦٠ م.

بعد تقاعده انتخب مُديراً في مُنظمة الأوبك في جنيف، ويذكر شريف يوسف أن الفضل في هذا الانتخاب يعود للمرحوم مُحَمَّد سلمان وزير النفط الأسبق، وبعد سنتين عاد إلى وطنه، وانصرف إلى البحث والتأليف،

فترك عدداً من المؤلفات القيمة منها (فن العمارة الإسلامية والعربية) و(مساجد بغداد) و(تاريخ فن العمارة العراقية في مُختلف العصور)، وهيأ الكتاب الأخير لطبعة ثانية أضاف فيها الشيء الكثير عما في الصفحة الأولى، وكان قد وضع بعض الكتب الصغيرة عن المواضع الأثرية عندما كان موظفاً في دائرة الآثار؛ وكتب عدداً كبيراً من المقالات والبحوث الهندسية والمعمارية والأثرية والتربوية وفي مجالات مُختلفة.

وأخيراً، لعل من الوفاء إحياء ذكرى هذه الشخصية التي قدمت لوطنها الشيء الجزيل والمفيد وأظن أن خير وفاء يكون في نشر كتابه الذي بين أيديكم الآن..

د. أمجد عبد العزيز

المقدمة

من المعلوم أن الفن المعماري العربي الإسلامي أوسع الفنون المعمارية طرا، وهو أكثرها انتشاراً، وأطولها عمرًا، وقد بقي هذا الفن ينمو ويزدهر قرابة ثلاثة قرون حتى بلغ جمال اتساقه وإبداعه في الهندسة المعمارية الأندلسية،

والعمارة العربية الإسلامية التي امتدت من الصين شرقًا إلى بلاد المغرب غربًا اشترك في إظهار دقائقها وتفصيلاتها المبتطرة الجميلة صناع ومهندسون من مختلف الجنسيات والأمم، ولأجل الإحاطة بهذا الموضوع الواسع سنحاول في هذه الموسوعة الصغيرة استعراض تلك الآثار في كل قطر من الأقطار حسب الأدوار التاريخية التي مرت على تلك الأقطار، شارحًا أهم ما فيها من مبانٍ ومنشآت التي اندثر بعضها ولا يزال بعضها الآخر قائمًا حتى الآن. مبينًا نظام تخطيطها ومصادره ومراحله، وإذا كانت المساجد والأضرحة التي سنبنيها عنصرًا عامًا وأصيلاً في حياة العمارة العربية الإسلامية، فإن أبنية القصور والمدارس والمارستانات والخانات والجسور وأسوار المدن وأبوابها والقلاع العسكرية، لا تقل أهمية من الوجهة الهندسية والمعمارية.

قالوا في العمارة:

قال الخليفة المأمون وهو يخاطب موسى بن داوود المهندس:

"يا موسى إذا بنيت لي بناءً؛ فاجعله مما يُعجز عن هدمه ليبقى طلله ورسمه".

وقال يحيى البرمكي لابنيه الفضل وجعفر:

"لا شئ أبقى ذكرا من البناء، فاتخذوا منه ما يبقي لكم ذكرا"

وقال أحد الشعراء :

إن البنـــاء إذا تعـــاظم شـــأنه   أضحى يدل على عظيم الشانِ

في البداية

حين بدأ العرب حياتهم الحافلة بعظائم الأمور، وجلائل الأحداث، كان فن العمارة عندهم لا يزال وليدًا، فلم يكن في بلادهم أي فن في ذلك الوقت خلا أثر مجذب تخلف عن الماضي السحيق،

ولا نجد في شبه الجزيرة العربية فن بناء ظاهر إلا في البقاع الخصبة التي كان يسكنها شعب يعيش في رخاء واستقرار كاليمن السعيدة التي تختلف ظروفها كل الاختلاف عن تلك الظروف التي تضطر القوم الرحل الذين يضربون في الصحراء، ويعيشون في عزلة وركود.

لقد تمكن العرب خلال نصف قرن أن يفتحوا ممالك كانت لها حضارة راسخة، ومدنية عريقة، فقاموا بتأسيس إمبراطورية تزيد في سعتها على سعة الإمبراطورية الرومانية في أيام عظمتها واتساعها. احتوت هذه الإمبراطورية العربية أممًا كثيرة، وشملت جزءًا من أرمينية وإسبانيا، كما ضمت إليها إيران وتركستان وأفغانستان والهند وبعض بلاد آسيا الشرقية.

كانت الديانات اليهودية والمسيحية والوثنية منتشرة في كل هذه البلاد، وكان لها معابد وكنائس عامرة متنوعة الطراز، كما كان فيها قصور ذات أساليب متقدمة في فن العمارة، وكان هناك رجال ذو خبرة ومهارة فائقة في البناء والإنشاء والزخرفة فضلًا عن توفر المواد الإنشائية المختلفة

فيها، فليس بعد هذا من عسير على العرب أن يبدأوا في إقامة المباني التي تلائم طبيعة معاشهم، وتتفق مع متطلبات حياتهم وشعائرهم الدينية..

تأثر العرب بفنون الأمم الأخرى:

تأثر العرب بحضارة ومدنيات البلاد التي فتحتها جيوشهم الظافرة، وكان تأثرهم بالأساليب الفنية التي كانت زاهرة في كل من سورية والعراق وإيران والهند وغيرها من البلاد شئ واضح وجلي. ولكنهم ما لبثوا أن أفرغوا تلك الفنون في قوالب متجانسة ومتناسبة لها طابع خاص وميزة بارزة، فأظهروا للعالم فنونًا أثرت بدورها في فنون الغرب بعد ذلك تأثيرًا ظاهرًا وواضحًا حتى اليوم.

فإذا قارنا الفنون العربية بالفنون التي سبقتها لوجدنا أن هذه يعوزها التنوع والابتكار، وأن العالم قد سئمها، فتطلع إلى أساليب فنمية جديدة أعظم أبهة، وأكثر حرية في الموضوعات والزخرفة، لا يعدل ما فيها من خيال وجاذبية إلا ما تمتاز به من أسرار في مزج الألوان وجعلها تملأ البصر وتبهج النفس.

ومهما يكن الأمر فليس باستطاعتنا أن ننكر مقدار استعانة العرب في أوائل نهضتهم برجال الفن والصناعة من أهل البلاد التي كانت ذات حظ وافر من الحضارة في ذلك العهد، فالعمارة العربية الإسلاميةالقائمة في العالم الإسلامي الممتد من الصين شرقاً إلى الأندلس غربًا اشترك في إظهار دقائقها وتفصيلاتها صناع ومهندسون من مختلف

الجنسيات والأمم التي اتخذت الإسلام دينا، وحتى الذين بقوا على دينهم من فرس وبيزنطيين وهنود وغيرهم.

ظهور العمارة العربية الإسلامية:

بعد أن تم للعرب الاستقرار في البلاد التي رفعوا فوقها رايتهم، بدات عماراتهم تظهر للعيان هنا وهناك، وأصبح لهذه العمارات شخصية معروفة ظاهرة، تختلف كل الاختلاف من حيث الأسلوب والطراز عن تلك التي وجدتها قائمة في االبلاد التي تم لهم فتحها، إن معظم العمارات والمنشآت التي شادوها في بداية حكمهم كانت في الغالب مساجد ودور إمارة، ثم توسعوا في البناء وأخذوا يشيدون المدارس ودور الشفاء والقلاع والجسور والتكايا وغيرها من المباني الخيرية، كما أنهم تفننوا في تخطيط مدن جديدة فيها الشوارع الواسعة، والبرك الجميلة، والحدائق الغناء التي تشهد بتقدمهم الفني واتساع خيالهم، وتذوقهم لكل شئ جميل.

بدأ الطراز العربي الإسلامي يظهر عندما أخذ المسلمون يجمعون شتى الطرز المعمارية القديمة، ويطبعونها بطابع دينهم الجديد، ويظهرونها للعالم فنًا معماريا جديدًا متميزًا عن غيره من الفنون المعمارية المعروفة في العالم؛ فكان للفن المعماري بصورة خاصة مكانة كبيرة عند حكام المسلمين وأمرائهم، وكان الفنانون على اختلاف جنسياتهم يظفرون بالتقدير والمكافأة من هؤلاء الحكام الذين يحلو لهم استغلال مواهب الفنانين في تشييد المباني، وتزيينها وزخرفتها وتأثيثها، منفقين المال بكل سخاء وكرم، يدفعهم إلى ذلك طلب رضى الله سبحانه وتعالى عند بناء المساجد

والجوامع والمباني الخيرية الأخرى، أو تدفعهم الرغبة في التفاخر وتخليد مآثرهم وأمجادهم، فالقصور والقلاع والحصون والجسور وغيرها كانت كلها تشيَّد بأمر هؤلاء الحكام وتحت إشرافهم، فيعنى بزخرفتها لتحمل اسمهم في الحياة، وتضم رفاقم بعد الممات أحيانًا، وهكذا تبعا لمستوى ثقافتهم كان هذا الفن يتقدم وهو دومًا في خدمتهم وخدمة حاشيتهم المقربين..

دراسة فن العمارة العربية:

إن كل منصف لا يستطيع أن ينكر فضل علماء الغرب على دراسة الفن العربي الإسلامي، فقد عنى الغربيون عناية كبيرة في دراسة آثار هذا الفن في مختلف الأقطار الإسلاميةولم يتركوا زاوية من الزوايا الأثرية إلا وتناولوها بحثًا وتنقيبًا، ودونوا نتائج دراساتهم هذه في كتب وأسفار عدة، ونحن أصحاب هذا التراث مدينون لهؤلاء العلماء بما أخرجوه من أبحاث ودراسات، وما جمعوه من وثائق وما نشروه من صور ومخططات ورسومات فمن الواجب الاعتراف بفضلهم، وتقدير مجهودهم الضانك، وتضحيتهم من مال ووقت في التأليف والتنقيح والإخراج والطبع، ولا شك أن كل ما نشروه يعتبر ذخرًا ثمينًا في هذا الباب.

أما نحن العرب فعنايتنا في هذا الموضوع لا تزال قليلة نسبيًا، وإن كانت هناك بوادر مُفرحة للنهوض بهذا البحث أخذت تظهر بوادرها عند المثقفين من الجيل الجديد، فقد صار البعض منهم يترجم بعض المؤلفات الأجنبية إلى العربية أو يدون ما يعثر عليه من معلومات في مصادر عربية قديمة وينشرها بشكل مقالات في الصحف والمجلات، كما أنه من دواعي

الفخر أن نرى مؤسسات الآثار القديمة والجامعات في مختلف البلاد العربية قد نشطت نشاطًا ملحوظًا في هذا المضمار، وقد صار الاهتمام بما بقي عندنا من الآثار الإسلاميةمن واجبات هذه المؤسسات، وشعرت الجامعات بضرورة التوسع في دراسة التراث العربي الإسلامي، والكشف عن جوانبه الغامضة المتعددة الفروع والشعب.

إن العمارات والمنشآت العربية الإسلامية التي لا يزال بعضها قائمًا، والمنتشرة من الصين إلى بلاد المغرب والتي اشترك في إظهار دقائقها المبتكرة صناع ومهندسون من مختلف الجنسيات والأمم كلها تحتاج إلى دراسة واكتشاف ما فيها من دقة وجمال، فهذه العمارات هي إحدى الشواهد الدالة على مقدار ما وصلت إليه الحضارة والمدنية العربية والإسلامية.

تطور فن العمارة العربية والإسلامية:

نشأ فن العمارة الإسلامية في المساجد والجوامع أولاً، وفيها ولد، وفي رحابها نما وترعرع، فكانت المساجد والجوامع الأولى أبنية بسيطة للصلاة والوعظ والاجتماعات العامة، ليس فيها نزوع إلى إتقان في العمارة والزخرفة.. وفي مثل هذه المباني البسيطة لم تكن هناك ثمة ضرورة إلى استعارة أساليب معمارية من مكان ما، إذ لم تكن هناك حاجة لمثل هذه الأساليب، وقد ظهرت الجوامع والمساجد بالرغم من التغييرات التي طرأت على بنائها بيتًا للعبادة، ورمزًا للوحدة الدينية والدنيوية.

انتقل العرب بعد ذلك من القناعة بالضروري اللازم إلى الطموح في إقامة الأبنية الضخمة انتقالاً سريعًا، فلم يمضِ علي وفاة النبي الكريم (ص) عشرون عاما حتى أعيد بناء مسجده بالمدينة المنورة بإقامة جدران ودعائم من الحجر له، ثم ظهرت المآذن والمحاريب، كما أدخلت زيادات ثانوية على البناء كالإيوانات والأروقة التي تحيط بصحن المسجد، رفعت فوقها الأقواس والعقود المتنوعة الأشكال من مدببة الأطراف إلى مسطحة إلى مفصصة وغيرها من الأشكال، وعلت السقوف فوق أعمدة من الرخام أو الحجر أو الآجر، كما ظهرت القباب في أفق البلاد الإسلامية، وهكذا نرى عمارة المساجد والجوامع تتطور في زمن قصير حتى أصبحت تشمل جميع المظاهر الرئيسية المهمة في البناء..

الأدوار التاريخية التي مر بها فن العمارة العربية:

بدأ الطراز العربي الإسلامي يظهر عندما أخذ العرب يجمعون شتى الطرز المعمارية القديمة، ويطبعونها بطابع دينهم الجديد، ويظهرونها للعالم فنا معماريا جديدا متميزا عن غيره من الفنون المعمارية المعروفة في العالم، فالطراز الأموي الذي هو أقدم الطرز الإسلامية، لم يكن في مطلع أمره بسيطا كما قد يخيل إلينا، لأن العرب بدأوا باقتباس أساليب الفنون التي سبقتهم، وجمعوا بين الطرز والأساليب المعمارية الهلنستية والمسيحية الشرقية (البيزنطية) التي وجدها في سورية والشرق الأدنى، وبين المقاصد التي توخاها المسلمون لأبنيتهم ومنشآتهم، ومن هذا الامتزاج ظهر طراز أموي بديع نقله قوادهم إلى سائر الأقاليم الإسلاميةعلى يد صناع كانوا

يتقدمونهم من الشام ومصر، وقد بقي هذا الطراز سائدا في المغرب وإسبانيا حتى بعد زوال ملك بني أمية في المشرق.

وعندما دالت دولة الأمويين وآلت الخلافة إلى العباسيين، وانتقلت العاصمة الإسلامية من دمشق إلى بغداد، ظهر طراز جديد لا ينكر تأثره بالأساليب الفنية الموروثة عن البابليين والآشوريين، وبالفن الإغريقى الذي جاء إلى الشرق عند دخول الإسكندر لهذه البلاد، ولما ضعفت الدولة العباسية وأخذت الأقاليم تستقل عن عاصمة الخلافة العباسية، ظهرت في كل إقليم صور وأساليب جديدة للفن المعماري الإسلامي مع المحافظة على الروح الإسلامية الأصيلة.

لقد بلغ الطراز العباسي أوج عظمته في سامراء، ونجح العباسيون في فرض أساليب عمارتهم على الإمبراطورية الإسلاميةكلها، وأصابوا في ذلك توفيقا كبيرا لا سيما في مصر في العصر الطولوني.

وعندما تم للفاطميين الاستيلاء على مصر، وبنوا القاهرة، بعث خلفاؤهم وأمراؤهم في مصر روح فن جديد فيه ترف عظيم، وأصبح طراز الفن المعماري الفاطمي غني بالرونق والجمال، فكان عصرهم عصر ثورة ملموسة لا في العمارة فحسب بل في مختلف الفنون الأخرى.. ولما قامت الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية، وبعدها دولة المماليك ازدادت ثروة البلاد، ومال أمراء المماليك إلى حياة الترف، وملأوا القصور بالأثاث النفيس، وأسباب الراحة والنعيم، وأخذ التسابق في بناء القصور

والمساجد والمدارس والأضرحة، وكلها بفن رفيع يدل على ذوق ومهارة عالية.

وحين تم للعرب فتح جميع إسبانيا تقريبا، وتأسست فيها دولة مستقلة ظلت مزدهرة عدة قرون حتى اقتسمها الولاة البربر، وكونوا دولا صغيرة متفرقة (ملوك الطائف)، ثم اتحد المغرب والأندلس تحت حكم المرابطين، وبعدهم الموحدين الذين ظلوا يدافعون عن الأندلس تجاه حملات الإسبان.

ولما حكم بنو ناصر الأندلس اقتصر حكمهم على مملكة غرناطة، واستطاعوا أن يقاوموا الإسبان حتى سنة ١٤٩٢م وبعدها سقطت دولتهم، وبسقوطها زال حكم العرب في الأندلس، ولكن آثارهم المعمارية والفنية والعلمية ظلت شاخصة فيها تبرهن على مقدار ما بلغه الفن المعماري العربي من رفعة وعظمة إلى اليوم.

أما في الشرق فقد قام على أنقاض الطراز العباسي طراز جديد في العراق والشرق الإيراني هو الطراز السلجوقي الذي أتيحت له السيطرة في القرن الخامس الهجري على القسم الشرقي من العالم الإسلامي، ثم جاء المغول إلى غرب آسيا واكتسحوا الدولة السلجوقية، ما عدا السلجوقيين في بلاد الروم، وأسسوا في العراق الدولة الأليخانية التي استمر حكمها حتى سنة ١٣٣٦م، حين قضى تيمورلنك على حكم خلفاء هولاكو في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي.

وفي إيران ظهرت الدولة الصفوية، ودام حكمها نحو قرنين، فازدهر الطراز الصفوي، وظل سائدا فيها لحد الآن، أما في الأقاليم الواقعة في غرب إيران فقد بدأت السيادة العثمانية في الظهور، وأصبحت تشمل آسيا الصغرى ومعظم البلاد العربية وبعض البلاد الأوروبية، لقد نشر العثمانيون في البلاد التي حكموها نوعا خاصا من الأبنية الدينية فيها قباب كبيرة، ومآذن رشيقة، ونرى أجمل آثارهم في كل من إسطنبول والبلقان وبلاد الشام ومصر.

وفي الهند استطاع الطراز الإيراني الممزوج بالطراز الهندي القديم أن يسيطر ويخرج لنا تحفا فنية رائعة نشاهدها في المساجد العديدة، وفي تاج محل وغيرها من الأبنية، لقد حصل نتيجة تبدل الحكم هذا وانتقال السلطة من إقليم إلى آخر، ومن بلد إلى بلد من البلدان الإسلامية العديدة، شئ كثير من التطور في فن العمارة الإسلامية إلا أنه ظل محافظا على الأسس العامة لهذا الفن في كل دور من تلك الأدوار التي بينَّاها بصورة مختصرة، ونحن حين نتتبع تاريخ الأقطار الإسلامية حسب تسلسلها التاريخي نلمس بوضوح آثار وحدة حضارية عربية تمتد من أقصى المغرب العربي إلى أقصى بلاد الهند.

الفترات الكبرى لتطور فن العمارة العربية:

قسَّم العلماء الأدوار التي مر بها الفن المعماري العربي الإسلامي إلى أربع فترات أساسية كبرى فجعلوا:

الفترة الأولى: تبدأ منذ انتشار الإسلام وتأسيس الإمبراطورية العربية إلى زمن ضعف الدولة العباسية، أي من منتصف القرن السابع الميلادي الى نهاية القرن التاسع، في هذه الفترة انتقلت عاصمة الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق، ومن دمشق إلى بغداد، وقد أصبحت الإمبراطورية العربية تشمل بلاد الرافدين وفارس وسوريا، وقسما من البلدان المحيطة بالبحر المتوسط ومصر وشمال أفريقيا والأندلس، ثم امتد حكم العرب شرقا ووصل كاشغر في الصين الغربية، كما وصل قلب فرنسا الى بواتييه غربا، وفي هذه الفترة خرج الفن المعماري من عصر التقليد وبدا يتميز بشخصية متشابهة الملامح في كل من دمشق وبغداد والقاهرة.

الفترة الثانية: تبدأ من بداية القرن العاشر الميلادي وتستمر زهاء مائتين وخمسين سنة، وفيها كانت الخلافة الأموية في الأندلس، والخلافة الفاطمية في مصر في أوج عظمتهما، كما قامت في هذه الفترة في العراق الدولة البويهية، ثم الدولة السلجوقية، وقد خرج الفن المعماري من مرحلة التقليد واغتنى بتأثيرات جديدة، فتنوعت اتجاهاته وأساليبه مع المحافظة على الروابط الأساسية التي تربطه بمصادره الأولية.

الفترة الثالثة: امتدت من القرن الثالث عشر الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وفيها انحلت سلطة الخلفاء في بغداد، وأخذت الممالك الإسلامية تنسلخ الواحدة بعد الأخرى عن الإمبراطورية مما أدى إلى تعرضها إلى أخطار خارجية عنيفة، فقد أضاع العرب في هذه الفترة الأندلس، واشتعلت الحروب الصليبية، وأخذ المغول يغيرون على البلاد

الإسلامية ويعيشون فيها، فتعددت العروش، وكان هذا التعدد من الأسباب الداعية لزيادة التنافس والتفاخر في إقامة المباني الفخمة، والتباهي في تنسيقها وزخرفتها.

الفترة الرابعة: دامت هذه الفترة نحو أربعة قرون، وفيها توحدت البلاد الإسلامية تقريبا تحت الحكم العثماني، وأصبحت القسطنطينية عاصمة الخلافة الإسلامية، وامتد النفوذ العثماني إلى جميع البلاد العربية من المغرب إلى الخليج العربي، كما شمل بلاد البلقان وجزر اليونان، فبرز في هذه الفترة طراز تركي استوحى أسلوبه من الطراز العثماني القديم والطراز البيزنطي والسلجوقي، إلا أن إيران في هذه الفترة تابعت تطورها المعماري القومي ولم تتأثر كثيرا بالطراز العثماني ومثلها بلاد الهند.

مدارس الفن المعماري الإسلامي:

بالرغم من وحدة الفن المعماري الإسلامي النسبية في الأدوار التاريخية المختلفة التي ذكرناها، فإن هذا الفن تأثر بتغييرات محلية مرتبطة بتقاليد الشعوب التي دخلت الإسلام، وتنوع بتنوع المواد الإنشائية الموجودة في كل بلد من البلدان الإسلامية، كما تأثر بعدوى الجوار للأمم التي لم يستطع الإسلام السيطرة عليها، ولهذا نرى هناك بعض الاختلاف في المظاهر العامة للعمارات الإسلامية بين بلد وآخر مما حدى بالعلماء إلى تقسيم الفن المعماري الإسلامي إلى عدة مدارس هي:

- المدرسة العربية
- المدرسة المغربية الأندلسية

- المدرسة العباسية
- المدرسة العثمانية أو التركية
- المدرسة الفارسية الهندية
- المدرسة المغولية

إن هذا التقسيم لا يعني وجود حدود حقيقية بين مدرسة وأخرى، وعلينا ألا ننخدع بالإطار الظاهري لكل مدرسة من هذه المدارس، بل الأفضل أن نجعل هذا التصنيف أثر مرونة، وأن نزيح كثيرا من الفروق الظاهرية الموجودة بينها، فالبلاد الإسلامية التي تربطها علاقات روحية ثابتة لم تقف المسافات الشاسعة التي تبعدها بعضها عن بعض حائلا دون تبادل الأفكار، وسريان الازدهار الفني الذي قد يظهر في إحداها إلى الأطراف الأخرى من البلاد الإسلامية، ولطالما ظهرت ضرورات سياسية كثيرة أوجبت التضامن بين الحكام المسلمين المتباعدين لتبادل البعثات الثقافية، وسعوا لتوثيق عرى الروابط بالمصاهرة والتعامل، كل ذلك ساعد رجال الفن على الانتقال من بلد إلى آخر لتبادل الصيغ الفنية، والتباهي في التفوق الفني عند كل منها، لهذه الأسباب يجب علينا عدم إعطاء أهمية كبرى لمفهوم المدرسة حسب التقسيم الجغرافي المار الذكر، بل يجب أن يكون اهتمامنا بالتقسيم التاريخي للتطور الطويل لهذا الفن.

المدرسة العربية

الفترة الأولى لتطور فن العمارة العربية الإسلامية

كانت الأبنية والمنشآت العربية في عهد الراشدين بسيطة تتمثل فيها بساطة الدين الإسلامي الحنيف، وقد امتنع هؤلاء الخلفاء عن البذخ والإسراف في أموال المسلمين، وتقيدوا كثيرا في الصرف لهذه الأغراض،

وانحصر همهم في تقوية جيوشهم الظافرة، وتأسيس مدن جديدة بسيطة البناء في البلاد التي حرروها لتكون معسكرات لجيوشهم.

إن أول مسجد بناه الرسول الأعظم (ص)، ووضع حجر أساسه بيده الكريمة في المدينة المنورة كان في بداية نزوله فيها، ويعتبر هذا المسجد النموذج الأول لسائر المساجد الأخرى، فهو عبارة عن مساحة من الأرض مربعة الشكل تقريبا، تحيط بها جدران من الآجر والحجر، وكان هناك سقف مرفوع على جزء من أجزاء هذا المربع سقيفة صنعت من جريد النخل.

أخذ المسلمون يجتمعون في هذا المسجد ويؤدون فريضة الصلاة، ويستمعون إلى المواعظ والخطب التي يلقيها عليهم الرسول الكريم (ص)، ولم يكن لهذا المسجد مئذنة، فكان المؤذن بلال الحبشي يؤذن من على سطح دار مجاورة أو من على أسطوانة، وهي مربعة يقال لها المطمار،

وعندما ذهب الرسول العظيم (ص) لملاقاة ربه دفن جسده الطاهر في الغرفة التي كان يسكن فيها والملاصقة للمسجد.

استخلف أبو بكر الصديق (رض) ولم يحدث في المسجد شيئا، وفي خلافة عمر (رض) وسع المسجد لما ضاق بالمصلين، وأصبح للمسجد ستة أبواب بعد أن كانت ثلاثة، وعندما تولى الخلافة عثمان (ص) بدأ بتعمير المسجد، وجعل داخله جزءا محاطا بسور واتخذ مقصورة له، واستبدل السقوف التي كانت من سعف النخيل بالخشب الذي استورده من الهند.

وفي العهد الأموي أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك عامله عمر بن عبد العزيز في الحجاز أن يعيد بناء المسجد وتوسيعه، فأحسن بناءه، واستعمل الرخام للأعمدة والفسيفساء في تزيين الجدران، وأصبحت مساحة المسجد تقدر بـ ٢٠٠ × ١٦٧ ذراعا، وأقيمت أربع مآذن في الأركان، وأدخل المحراب في بناء جدار القبلة، وجعل أربعة أعمدة تحيط بقبر النبي العظيم (ص) لتحدد موقع منزله، وصار هذا المكان يعرف بالروضة.

وفي زمن الخلافة العباسية قام المهدي بتوسيع المسجد ووضعت الحدود النهائية التي استقر عليها الحرم الشريف بعد ذلك، وأصبحت المساحة ٢٠٠ × ٣٠٠ ذراعا، وكانت الأروقة تحيط بالصحن من الجهات الأربع، وجعل الأعمدة من الحجر، يجلس عليها السقف مباشرة، وأصبح للمسجد ١٩ بابا.

وفي عام ٦٧٨هـ/ ١٢٩٧م، أقام ملك مصر الناصر قلاوون قبة الحجرة الشريفة، وعندما احترق المسجد قام الملك قايتباي في إعادة بنائه وأتمه على أحسن هندام، وفي العهد العثماني عمر السلطان سليم المسجد، وبنى قبة المنبر الشريف، ثم جاء بعده السلطان محمود وبنى القبة الشريفة ودهنها باللون الأخضر.

لقد جددت الحكومة العربية السعودية بناء المسجد بصورة كاملة ما عدا القبة الخضراء القائمة على الروضة الشريفة ورواق المحراب، وبلغت مساحة المسجد الآن ١٤٢٢٦ مترا مربعا، وأصبح منظر المسجد من الداخل والخارج رائعا لاتساعه وكثرة أعمدته الرخامية وجمال مآذنه وزينته وزخرفته.

المسجد الحرام والكعبة الشريفة:

فتح المسلمون مكة وأمر الرسول (ص) بتطهير الكعبة مما فيها من أصنام وصور وتماثيل، أما البناء فقد ظل كما هو دون تغيير أو تحويل، ولم يكن للمسجد جدران تحدده، كما لم يكن بينه وبين البيوت المجاورة سور أو حاجز، وظلت الحال على ذلك حتى خلافة أبي بكر الصديق (رض) لانشغال المسلمين بكليتهم في نشر الدين الحنيف، فقد شغلهم الجهاد عن البناء وتوسيع المسجد الحرام.

وعندما استقرت الأمور، وقويت دعائم الإسلام، وتكاثر عدد الحجاج والمصلين حول الكعبة زمن الخليفة عمر (رض) عزم على توسيع الحرم بهدم ما حوله من دور بعد شرائها من أصحابها، وأحاط الكعبة بجدار

ارتفاعه يزيد عن قامة الرجل، وبعد توسيع المسجد وجد الخليفة عثمان (رض) أنه لا يزال يضيق بمصليه وحجاجه، فقام بشراء دور أخرى ملاصقة للمسجد وهدمها وأدخلها في مساحة المسجد، وجعل له أروقة وهي أول أروقة استظل بها المسلمون في الحرم.

وفي العهد الأموي قام الوليد بن عبد الملك في توسيع المسجد ايضا، وأقام بناءً محكما، وجاء بالأساطين من مصر والشام، وزينت الجدران بالفسيفساء، فكانت لأول زينة استعملت في هذا المقام الشريف، وزاد الوليد رواقا واحدا دائرا على حافة المسجد حول الكعبة من الجهة الشرقية.

وفي العهد العباسي قام المهدي بتوسيع المسجد والمسعى، وأمر بأساطين الرخام فنقلت من الشام ومصر أيضا إلى مكة، واتخذ للمسجد أروقة جديدة سقفها بخشب الساج، وبلغ عدد أبواب المسجد ٢٣ بابا، وكان للمسجد أربع منارات، إحداها فوق باب العمرة، والثانية فوق باب الوداع، والثالثة فوق باب علي، والرابعة فوق باب السلام، وبلغت مساحة المسجد ٤٠٤ ×٣٠٤ ذراعا.

وفي العهد العثماني اعتنى الخلفاء عناية كبيرة بشؤون المسجد الحرام، وقد بادر السلطان سليم في بنائه بناءً محكما، وجعل سقوفه قبابا بدلا من الأخشاب، وفي العهد السعودي جرى توسيع الحرم حتى أصبح أضعاف ما كان عليه سابقا، وأحيط بأروقة ذات عدة طوابق، وأنشئت سبع مآذن عالية متناسقة، وكسيت الجدران بالرخام الثمين.

المدن التي أسسها العرب في العراق

مدينة البصرة ومسجدها:

بنى العرب مدينة البصرة عام ١٤هـ/ ٦٣٥م، بعد تحرير العراق، وكان مؤسسها عتبة بن غزوان المازني عامل الخليفة عمر (رض) خطها وفقا للقبائل التي سكنتها، وجعل فيها الشوارع الرئيسية والفرعية ورحبات فسيحة لمرابط الخيل، وكانت المنازل متلاصقة، وجعل المسجد الجامع ودار الإمارة وبيت المال في وسط المدينة، والأسواق حولها، وكان المسجد خاليا من البناء يشتمل على ساحة مكشوفة مسورة بسياج من القصب ما أن لبث حتى شيد له سور من اللبن والطين بأمر من أبي موسى الأشعري، وجعل سقفه من القصب يحتمي فيها المصلون من حرارة الشمس في النهار.

وفي زمن الخليفة معاوية قام عامله على العراق زياد بن أبيه بإعادة بناء المسجد، واستبدل السقف القديم بسقف من خشب الساج، وجعل الرواق بخمسة صفوف قائمة على أعمدة من الرخام، ثم حول دار الإمارة من الدهناء إلى خلف المسجد من جهة القبلة، وكذلك بنى مقصورة، كما بنى للمسجد منارة.

وفي خلافة المهدي أرسل ابن عمه مُحَمَّد بن سليمان واليا إلى البصرة، وكانت البصرة قد بلغت أوج عظمتها ورقيها، وفي زمن الخليفة الرشيد أمر بهدم دار الإمارة وضمها إلى المسجد فأصبح أوسع الجوامع

وأعظم المساجد في وسط مدينة البصرة، تتفرع منه الطرق والشوارع، وكان للمسجد ١٨ بابا.

احترق المسجد عدة مرات، وكان آخر حريق حدث فيه عام ٦٠٧ هـ/ ١٢٢٦م، وأعاد عمارته والي البصرة التركي أبو المظفر باتكين بعد ذلك بدأ الخراب يدب في المسجد عند اندثار البصرة القديمة سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٩٧م، حين انتقل أهلها إلى البصرة الجديدة، ولم يبق لهذا المسجد من أثر سوى جناحه الشمالي، ويشاهد الآن في وسط خرائب البصرة القديمة ركن من الآجر قائم بشكل برج يعرف بمنارة الإمام علي عند العامة، ولكنه في الحقيقة هو أحد أركان المسجد المشيد فية العصر السلجوقي.

مدينة الكوفة ومسجدها

بنيت الكوفة على غرار مدينة البصرة، وقد جاء بناؤها بعد عامين أو ثلاثة من بناء البصرة، بناها سعد بن أبي وقاص على الجانب الغربي من نهر الفرات، وكان البناء بالقصب، ولما تعرضت للحريق استأذنوا الخليفة عمر (رض) في البناء باللبن فأجابهم إلى ذلك، ثم زادوا عليها مع الأيام حتى كمل بناؤها في أيام زياد بن أبيه، وأصبحت واسعة، وكثر فيها العمران، ولكنها تضاءلت عندما بنى الحجاج مدينة واسط، وفقدت أهميتها كمركز للإمارة، ولكنها بقيت مدة غير قصيرة مركزا عسكريا وموئلا ثقافيا، وعندما زارها ابن جبير قال: "إن معظمها خراب"

إن أول ما اختط في مدينة الكوفة هو المسجد ودار الإمارة وبيت المال، ولم يكن لهذا المسجد سور في بادىء الأمر، بل كان صحنه مكشوفا يحيط به خندق، وله سقيفة يستظل بها المصلون في الجهة الجنوبية من الصحن ثم أحيط المسجد بسور من اللبن والطين، وقد أمر الخليفة عمر (رض) أن يخط المسجد بحيث يتسع لأربعين ألف مصل، وفي إمارة زياد بن أبيه وسع المسجد بحيث صار يتسع لستين ألف مصل، وبنى الجدران بالآجر المستخرج من خرائب الحيرة، وجلب زياد الأعمدة الحجرية من الحيرة أيضا ، وفي مصدر آخر من الأحواز، وكان حرم المسجد مكونا من خمسة أروقة، وفي الجهات الثلاث الأخرى رواقان.

والمسجد بحالته الراهنة لا يتفق وما وصفه الرحالتان ابن جبير وابن بطوطة، وهذا ما يدل على أنه قد أصابه الخراب والتعمير بعد العصر الذي شاهداه فيه، ويتألف المسجد بوضعه الراهن من أربعة جدران عالية مبنية بالآجر والجص، يبلغ طول الضلع القبلي ١١٠ مترا ، وجداره الشمالي ١٠٩ مترا، وكل من الجدارين الجانبيين ١١٦ مترا، وهذه الجدران مدعومة بـ ٢٨ برجا نصف دائرية، وفي كل ركن برج واحد، ويلتصق بالمسجد من الجهة الشمالية الشرقية بناء يضم قبر مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعلى كل من القبرين قبة.

أما دار الإمارة فهي مربعة الشكل، ترتسم خلف مسجد الكوفة، أبعادها ١٠٠×١١٠ مترا تقريبا، تدعم كل ضلع من الخارج ستة أبراج نصف دائرية باستثناء الضلع الشمالي إذ يدعمه برجان فقط، ويتصل

الركن الشمالي الغربي بسور المسجد، وليس فيه برج، ولهذا السور باب رئيسي يؤدي إلى فناء الدار، ويقع في منتصف الضلع الشمالي، وإذا تجاوزنا هذا المدخل ومررنا بفناء الدار نصل إلى غرفة مستطيلة ومنها نصل إلى رواق يطل من الجهة الجنوبية على ساحة الدار، وهي مربعة تقريبا، تتشابه أضلاعها من حيث توزيع الأواوين التي كانت مشيدة على الطراز الحيري، أي المقدمة والجناحان والقلب، وغرفة في المؤخرة تلي القلب، وفي جدار هذا القلب الشمالي منفذان يؤيديان إلى مرافق الدار الأخرى حيث تتألف من ساحة مستطيلة مقسمة إلى عدة غرف متوازية ومتعامدة مع الضلع الشرقي للدار.

المسلمون في الموصل:

دخل المسلمون الموصل بقيادة بن فرقد السلمي سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م في أيام الخليفة عمر (رض) أمر عليها عرفجة بن هرثمة فاختط منازل العرب فيها، ووضع الجامع حتى أصبح يتسع لأكثر من أحد عشر ألف مصل، وبنى مروان المطابخ ليطبخ بها للناس الطعام في شهر رمضان كما بنى منارة ومقصورة يصلى بها. وللجامع منارة اليوم تعرف بمنارة الكوازين، كما يعرف الجامع بجامع الكوازين لوقوعه في محلة الكوازين، وفي سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨١٥م، جدد عمارة الجامع رجل من أهل البر هو الحاج مُحَّد مصفي الذهب فعرف الجامع من ذلك الوقت باسم جامع المصفي.

العرب في الشام:

أنقذ العرب بلاد الشام من يد الروم، وقد سقطت دمشق على يد القادة: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وأبي عبيدة، ولأداء فريضة الصلاة شاركوا النصارى كنائسهم أو قسموها إلى قسمين قسم لإقامة الصلاة للنصارى والقسم الآخر للمسلمين، وعندما انتقلت الخلافة إلى الأمويين سنة ٣٨هـ/ ٦٥٨م وأصبحت دمشق عاصمة الدولة العربية الكبرى، وأخذت هذه الدولة بحظها الوافر من الترف والرخاء، وانتقل المسلمون من القناعة بالضروري اللازم للحياة البسيطة التي كانوا يحيونها إلى الترف والبذخ في سبيل إقامة أجمل المباني الفخمة التي تتفق ومركز إمبراطوريتهم العظيمة.

بدأ العرب أولاً في بناء المساجد والجوامع فاختاروا كنيسة القديس يوحنا وحولوها إلى مسجد جامع بعد أن اشتراها الوليد بن عبد الملك من النصارى، وأعاد بناءها فجاء هذا البناء آية في الفن وروعة في الزخرفة والجمال، في هذا الجامع تتمثل ظواهر معمارية إسلامية عديدة منها ترتيب الأروقة والبلاطات في الحرم، وإدخال المحراب في جدار القبلة، وبناء المئذنة، واستعمال العقود والأقواس الشبيهة بحدوة الفرس، وكذلك الزخارف والفسيفساء التي تزين الجدران والعقود التي لا يضاهيها أى عمل مماثل عند الرومان.

العرب في حلب:

شيد المسلمون الجامع الأموي الكبير (مسجد زكريا) سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م داخل ساحة كنيسة كانت مشيدة فوق أنقاض معبد روماني قديم، وقد جدد السلاجقة هذا الجامع سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٩٠م، وشيدوا مئذنته الشهيرة المربعة الشكل ذات الهندسة السلجوقية الجميلة، وعندما احترق هذا الجامع سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م أعاد نور الدين زنكي بناءه، وبنى المحراب وعمل المنبر الدقيق الصنع والمطعم بالعاج، وفي داخل الحرم بالقرب من المحراب شباك يقع خلفه قبر زكريا بن يوحنا المعمداني، ولحرم الجامع ثلاثة أروقة على غرار الجامع الأموي في الشام، ويحيط بصحن الجامع من الجهتين الغربية والشمالية رواق واحد، ومن الجهة الشرقية ثلاثة أروقة، وتقع المئذنة في الزاوية الشمالية الغربية من الصحن، وللجامع أربعة أبواب أحدها من الحرم إلى السوق مباشرة، وصحن الجامع مربع الشكل، ومساحته ٢٥٠٠ مترا مربعا.

العرب في القدس:

حاصر العرب مدينة القدس مدة طويلة، وعندما شعر أهلها بالضنك العظيم رغبوا في الصلح شرط أن يكون المفاوض الخليفة عمر (رض)، فتوجه عمر من المدينة إلى القدس وكتب عهداً لأهلها، ففتحت له الأبواب، وخر عمر ساجدًا لله، وسار حتى دخل كنيسة القيامة وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردًا ثم طلب من البطريق أن يريه موضعًا يبنى فيه مسجدًا للمسلمين، فقال البطريق: "على الصخرة التي

كلم الله عليها يعقوب" فانطلق إليها عمر فوجد عليها ردماً كثيرًا فشرع في إزالته وتناوله بيده يرفعه بثوبه، فهرع المسلمون إلى اقتداء به، وأمر في بناء المسجد في ذلك الموضع.

يذكر المقدسي أن الخليفة عبد الملك بن مروان بنى سورا حول تلك الأرض المقدسة، وجعل السور قائما على أسس سور قديم يرجع عهد بناؤه الى الملك داوود، وكان لهذا السور أبراج ومدخل، وهو مستطيل الشكل طوله ١٥٠٠ قدما ومعدل عرضه ١٦٠ قدما، ومساحته تقرب من ثلاثة أفدنة، ويضم سور الحرم المقدسي اليوم مسجد الصخرة والمسجد الأقصى وما فيهما من مبان ومنشآت، وتبلغ مساحة هذا الحرم ٦٥٠×٣٦٠ مترا، وإلى الشرق من قبة الصخرة قبة صغيرة تسمى قبة السلسلة محمولة على ستة أعمدة، وحول هذه الأعمدة رواق بشسكل مضلع ذى أحد عشر ضلعا وفيه محراب، وقد سمي هذا البناء بمجلس قضاء داوود.

في عام ٩١هـ/ ٧٠٩م قام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بتشييد المسجد الأقصى، وجعل البهو الوسطي في حرم المسجد، والذي يؤدي إلى المحراب، أوسع الأروقة الواقعة على جانبيه وأكثر ارتفاعا منها، يغطي الحرم سقف بشكل جملون من الخشب، وكان على المربع الواقع أمام المحراب قبة عظيمة أوسع من القبة الموجودة في المسجد في الوقت الحاضر، وهناك على جانبي الرواق الوسطي سبعة أروقة من كل جانب تعلوها أحد عشر طاقة، وكان في الضلع الشرقي من الحرم أحد عشرة بابا.

إن كل ما تبقى من المسجد القديم الذي بناه عبد الملك هو القسم المحيط بالمحراب، أما الأقسام الأخرى فقد زالت معالمها بسبب الزلزال الذي حدث في سنة ٧٨٠م، في عهد الدولة العباسية، وقد أعاد الخليفة المهدي بناء المسجد بصورة أمتن مع المحافظة على القسم القديم الذي سلم من الانهدام.

وفي سنة **٤٢٤**هـ/ **١٠٣٣**م حدث زلزال آخر في القدس تصدع على أثره بعض جدران المسجد الأقصى، فأعاد الخليفة الفاطمي الظاهر بناء ما تصدع، كما جرت إصلاحات في بناء المسجد في زمن صلاح الدين الأيوبي، ولكن أهم الأقسام القائمة الآن ترجع إلى زمن الخليفة الظاهر..

قبة الصخرة:

تقع قبة الصخرة على بعدين متساويين من الضلعين الشمالي والجنوبي لسور الحرم القدسي، ولكن المحور الطولي المار بمركز الصخرة ليس على أية أبعاد متساوية من الضلعين الشرقي والغربي للسور، ويتميز بناء هذا المسجد بتصميم فريد لم يعرف من قبل في عمارة المساجد الإسلامية كما لم يتكرر ظهوره مرة ثانية، لقد كان على المهندس الذي أوكل إليه هذا التصميم أن يضع تخطيطا مناسبا يضم في وسطه الصخرة المقدسة، ويهيئ مساحة مناسبة تحيط بالصخرة لطواف أكبر عدد ممكن من الحجاج حولها.

جعل بناء المسجد مثمن الأركان مكونا من تثمينة خارجية من الجدران، داخلها تثمينة أخرى مكونة من ستة عشر عمودا وثمانية أساطين،

كل عمودين بين أسطوانتين، وفي الوسط دائرة من الأعمدة والأساطين أيضا، عدد الأعمدة اثنى عشر عمودا وعدد الأساطين أربع، تقوم فيها كل ثلاثة أعمدة بين أسطوانتين تعلوها عقود تحمل كرسي القبة أو رقبتها التي يبلغ قطرها ٢٠.٤٤ مترا.

أما الجدار الخارجي المثمن الشكل فيبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ٢٠.٥٩ مترا، وارتفاعه ٥٠و٩ مترا، يضاف إلى ذلك ٣.٦٠ مترا ارتفاع الحائط العلوى (الدروة)، وقد جعل في الأضلاع الخارجية عقود مدببة تعلوها خمس نوافذ مفتوحة في جزئها العلوى لإضاءة داخل البناء، واثنتان مسدودتان في أطراف الأركان، أما الأضلاع المقابلة للجهات الأربع الأصلية ففي وسط كل منها باب أو مدخل للمسجد، تتقدم كل مدخل سقيفة على أعمدة، ويستمر تسلسل النوافذ في أعلى هذه الأضلاع أيضا.

وكانت القبة العظيمة التي تعلو المسجد مصنوعة من الخشب، وتغطيها صفائح من الرصاص وفوقها ألواح من النحاس البراق، الا أن هذه القبة قد سقطت في عام ٤٠٧هـ/ ١٠٣٦م، والقبة الآن يرجع تاريخها إلى سنة ٤١٣ هـ /١٠٤٥ م وهي مكونة من طبقتين، تغطى الطبقة الداخلية ألواح من الخشب، ثم تغطيها بنقوش وزخارف جصية جميلة، وتغطي القسم الخارجي منها ألواح النحاس البراق.

وفي سنة ٤٠٧هـ/ ١٠٣٦م تهدمت القبة والجدار الجنوبي الشرقي فأمر الخليفة الفاطمي الظاهر بإعادة تشييد ذلك وزين الداخل

بالفسيفساء وفي سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م احترقت القبة مرة أخرى، وأعاد بناءها السلطان سليمان الأول العثماني، وأجرى إصلاحات مهمة أخرى في البناء.

وليس من السهل أن نبين بإسهاب ما تتحلى به قبة الصخرة من موضوعات زخرفية لا تقع تحت حصر، فهي متعددة الأشكال، منتنوعة الألوان، استوحى الفنان المسلم بعضها من الطبيعة الرائعة كالأشجار وهي يانعة الخضرة، مضافا إليها الورود والفاكهة كلها بألوان جذابة غلبت عليها الزرقة وبالإضافة إلى كل ذلك نرى الزخارف القشانية حول رقبة القبة من الخارج، وفوقها كتابة بالخط العربي لسورة الإسراء ولكنها غير كاملة.

وهناك خط آخر من الآيات القرآنية تحيط بسطح الجدار الخارجي المثمن من الأعلى، مكتوبة على القاشاني أيضا، وفي الداخل كتابة بالخط الكوفي المذهب يبلغ طولها نحو ٢٤٠ مترا، وهي موضوعة على أرضية زرقاء داكنة من الزخارف والفسيفساء التي تحلي الجزء العلوي من التثمينة الداخلية، وقوام هذه الكتابة آيات قرآنية.

إن لقبة الصخرة أهمية ممتازة في تاريخ العمارة الإسلامية، فقد بهرت ببهائها ورونقها وفخامتها وسحر تناسقها ودقة نسبها كل من حاول من العلماء والباحثين دراستها، فهي في نظر العالم (هارتمان) نموذج من التناسق والانسجام، وفي نظر (هيتر لويس) أجمل الآثار التي خلدها التاريخ، ويقول (فرسكون): "إنني لم أكن أتوقع مطلقًا أن أرى مثل هذه العظمة الساحرة، والفتنة الفائقة في هذا البناء، ولا زلت أذكر جيدًا كيف

كان إعجابي بتاج محل وغيره من المقابر الملكية في الهند، ولكن قبة الصخرة في نظري تفوقها جميعا، وإن ما فيها من الدقة وجمال التناسق الذي لا نظير له ليفوق كل أثر آخر فيما أعلم"

القصور الأموية في بادية الشام:

بنى خلفاء بني أمية قصورا عديدة في بادية الشام وكانت أشبه بالقلاع الضخمة، كما اتخذ بعضهم القلاع الرومانية القديمة سكنا لهم بعد ترميمها وزخرفتها، أما القصور التي بنوها فقد جمعوا فيها كل وسائل الترف وحضارة سكان المدن، فأحاطوها بأسوار محصنة ذات أبراج عالية، واهتموا كثيرا في زخرفتها وزينتها، فصارت البادية عامرة بهذه القصور التي لا تزال محافظة على روعتها وجمالها رغم ما أصابها من تلف ودمار من تلك القصور

قصر المشتى:

يتكون هذا القصر من ثلاثة أقسام رئيسية أوسعها القسم الوسطي، يكتنف المدخل العام للقصر الواقع في وسط الضلع الجنوبي من السور الخارجي برجان على شكل نصفي مثمنين، تلي هذا المدخل ردهة توصل إلى فناء مربع التخطيط، على جهتيها حجرات مكونة من طابقين، وعلى يمين المدخل غرفة مستطيلة في جدارها الجنوبي محراب مما يدل على كونها مسجد القصر، وبعد الفناء الصغير فناء كبير يتوسطه حوض ماء، ثم يلي ذلك قاعة الاستقبال، وقد قسمت إلى ثلاث بلاطات تنتهي بقاعة العرش المكونة من ثلاث حنيات شكلها نصف دائرة، وعلى جانبي هذه القاعة أربعة بيوت مكونة من زوجين من الغرف.

ترجع شهرة هذا القصر إلى النقوش الجميلة التي تحيط واجهة المدخل الخارجي، وهذه الزخارف المنحوتة في الحجر جعلت داخل إطار أفقي يمتد بطول هذه الواجهة، بارتفاع سنة أمتار تقريبا، وبالنظر لجمال هذه الزخرفة وأهميتها التاريخية طلب (غليوم) إمبراطور ألمانيا من السلطان عبد الحميد العثماني، عند زيارته لتركيا في سنة ١٣٢٢هـ / ١٩٠٣م، إعطاءه هذه الواجهة الجميلة من القصر، فنقلت إلى متحف برلين.

قصر المنية:

يقع هذا القصر في الجهة الشمالية الشرقية من ساحل بحيرة طبرية في فلسطين، اكتشف هذا القصر الأستاذ (مادر) سنة ١٩٣٢ فظهر في إحدى ألواح الرخام فيه اسم الوليد بن عبد الملك، إن هذا القصر أشبه بحصن روماني، والبناء بشكل مستطيل في أركانه أبراج مستديرة ونصف دائرية في منتصف ثلاثة من أضلاعه، وفي الضلع الشرقي برج يكاد يكون إهليلجي الشكل، في وسطه مدخل القصر، أما بهو المدخل فهو مربع الشكل فوقه قبة تليه قاعة مستطيلة مفتوحة على صحن القصر المحاط من جهاته الأربعة بأروقة.

ويقع مسجد القصر في الزاوية الجنوبية الشرقية، وله محراب في جدار القبلة، أما قاعة الاستقبال الكبرى فتقع في منتصف الضلع الجنوبي من السور، وقد زخرفت بزخارف رائعة ونقوش بديعة، وتقسم هذه القاعة إلى ثلاثة أقسام بواسطة صفين من الأعمدة، أكبرها القسم الأوسط، وفي

الضلع الغربي من القصر قاعة أخرى مستطيلة الشكل على طرفيها غرفتان، وأرضية هذه القاعات والغرف كلها مبلطة بالفسيفساء البديع.

قصر الطوبة:

يقع هذا القصر على بعد ٦٠ ميلا جنوب شرقي عمان في وادي غداف، وقد تم اكتشافه سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٨م، وينسب إلى الوليد الثاني، وهذا البناء مستطيل أبعاده ١٤٠.٥٠ × ٧٢.٨٥ مترا، ويتكون من مربعين متماثلين متلاصقين تقريبا، واجهة كل منهما ٧٠ مترا، ومتصلين بباب، خلفه ممر طويل يوصل بين صحنين مربعين، ولكل من المربعين مدخل خلفه ممر طويل يؤدي إلى صحن الدار، على طرفيه الشرقي والغربي صحنان آخران صغيران، يختص كل صحن منهما ببيت من البيوت المتناظرة التخطيط، وعلى هذا الأساس يكون القصر مؤلفا من دارين، وفي كل دار أربعة بيوت متناظرة من حيث توزيع الغرف والقاعات، وهناك شبه كبير بين هذا القصر وقصر المشتى مما يدل على أنهما شيدا في وقت واحد.

قصر هشام في أريحا (قصر خربة المفجر):

يقع هذا القصر في واحة (أريحا) في فلسطين وينسب إلى الخليفة هشام، تم اكتشافه بين سنة ١٩٣٠ و١٩٤٨، ويتكون القصر من مجموعة أبنية فريدة في أساليبها المعمارية والفنية لا مثيل لها في سائر القصور الأموية، فهو يحتوي على قصر وحمام ومسجد وساحة كبيرة في وسطها نافورة أو بركة ماء واسعة مثمنة الشكل محاطة بأعمدة تحمل سقفا لرواق

يدور حولها تعلوه قبة، وعلى جانبي مدخل القصر برجان مربعان عظيمان في الجهة الجنوبية لسوره، ومن هذا المدخل يصل المشاهد إلى ساحة مربعة كبيرة محاطة بأعمدة طول كل ضلع منها ٣٠٠ مترا، ويطل القصر على هذه الساحة من الجهة الغربية، وللقصر مدخل ضخم، وفي وسط القصر صحن مربع، محاط من جهاته الأربعة بأروقة بطابقتين تتقدم غرف القصر وقاعاته، ويرتقي إلى الطابق العلوي بواسطة سلمين على جانبي البناء.

وتقع قاعة الاستقبال في الجهة الشمالية من الصحن وهي مستطيلة الشكل ٣٠٦ × ٤٠ مترا، في وسطها صف من ستة أعمدة موازية للضلع الطويل من القاعة، وأما إيوان القصر سلم ينزل إلى غرفته فرشت أرضها بالفسيفساء وهي أشبه بسجادة تغطي أرضية الغرفة بكاملها، وتلي هذه الغرفة قاعة تحت الأرض رصفت أرضيتها بالفسيفساء أيضا، يستدل من تفاصيل البناء على أنها كانت حمام القصر.

وفي خارج القصر حمام كبير يتميز بكثرة القباب الموجودة بسقفه، ويتكون الحمام من إيوان مربع مزود بثلاثة محاريب كبيرة يغطي أرضها طبقة من الفسيفساء المزخرف، وفي الحمام ١٦ عمودا ترتكز عليها القباب، ومن الزاوية الشمالية الشرقية للقصر يمكن المرور إلى مسجد القصر الكبير الحق ببناء القصر فيما بعد ولهذا المسجد محراب خلفه من الجهة الخارجية برج مربع ضخم مما يدل على كونه قاعدة للمئذنة.

الحير الشرقي والحير الغربي:

يقع هذان القصران المتجاوران في الصحراء في الجهة الشمالية من تدمر وعلى بعد ٦٠ ميلا عنها، وتدل الكتابة التي عثر عليها العالم (روسو) سنة ١٩٠٨ والمدونة على أحد الأعمدة على أن بناء القصرين كان في زمن الخليفة هشام ١٠٦ – ١٢٥هـ (٧٢٤–٧٤٣م)، وقد شيد القصران بالآجر بينما القصور الموية الأخرى بالحجارة.

استخدم الفنانون في زخرفة الحير الغربي الجص البارز المنقوش على نطاق واسع، وقد حل (الأفريسكو) محل الفسيفساء في كسوة الأرضية، ويظهر في إحدى التصاوير الجدارية، التي نقلت إلى متحف دمشق، رسم يصور آلهة الأرض في وضع نصفي داخل دائرة، وتحيط بهذه الدائرة عناصر زخرفية إغريقية مثل أوراق العنب والحيوان الآدمي الذي يعرف عند الإغريق بـ (السنتاور)، كما نرى في صورة أخرى فارسًا يطارد الحيوانات بسهامه، ويلاحظ أن طريقة رسم الصور في هذا القصر هي تحديدها العناصر باللون الأسود، مما يدل على التقاء التيارات الفنية المختلفة، فبجانب التأثير الإغريقي الكلاسيكي يظهر الأسلوب الفارسي.

أما الحير الشرقي فيقع مدخل القصر في وسط الضلع الغربي، وعلى جانبي المدخل غرفتان معقودتان بالآجر، وفي برجي المدخل زخرفة جميلة فريدة من نوعها، وقد توجا بقبتين مستديرتين، وفي الزاوية الجنوبية من ساحة القصر بناء يدل مظهره وتصميمه على أنه مسجد القصر؛ ففي وسط جداره الجنوبي محراب، وعلى جانبيه ثلاثة أروقة موازية لضلع القبلة،

ولهذا المسجد صحن مربع تقريبا محاط بأروقة من الجهات الثلاث قائمة على أعمدة رخامية، وهناك برج مربع تهدم القسم الأعلى منه الأرجح أنه مئذنة المسجد.

مما تقدم من وصف مسهب لبعض القصور الأموية الجميلة في بادية الشام نستطيع القول أن العرب وهم ذو الذكاء اللامع، والخيال الخصب، كان شأنهم في العصر الأموي شأن الحاكم الغني الذي يحاول التنعم بخيرات ما أصابه من رزق وافر، فأخذ بأسباب الرفاه وأعطى الحياة حقها من متاع الدنيا، لقد حول العرب في زمن قصير قوة الإبداع الفنى عند الأمم المختلفة إلى احتياجاتهم وابتكاراتهم حتى صار فنا عربيا جديدا اتصف بالجمال والنضارة والبهاء.

مدينة واسط:

عندما تولى الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٤ م، في زمن خلافة عبد الملك بن مروان شيد على ضفة دجلة الغربية بلدة سماها (واسط) لتوسطها بين البصرة والكوفة وجعلها مقرا لحكمه، توسعت هذه المدينة، وأصبحت تشغل ضفتي النهر، يربط بينهما جسر، وبنى الحجاج مسجدا جامعا في الضفة الغربية، وجعل دار الإمارة وراء الجدار القبلي للجامع، ويشغل الجامع أرضا مساحتها ١٠٤.٣٠× ١٠٣.٥٠مترا، تحيط بصحنه بلاطات من جوانبه الأربعة، وترتفع السقوف على أسطوانات حجرية منحوتة، أما قصر الحجاج فإن أسسه تكاد تكون ممدودة ولكن (ابن رسته) ذكر بأن لهذا القصر قبة مشرفة عالية خضراء

ترى من بعد سبعة فراسخ (٣٥ كم) وقد ظل هذا القصر مائلا إلى الربع الأخير من القرن السادس الهجري، وقد جعل الحجاج على مقربة من القصر سوقا عامرة كان التجار يتعاطون فيه مختلف البضاعة في تجاراتهم.

وقد ظهر بنتيجة الحفريات الأثرية أن المسجد المكتشف في الطبقة العليا شيد على أسس مسجدين أقدم منه بإضافة بلاطة واحدة في كل من الجانبين.

أما المسجد الثاني شيد فوق الجامع الأول الذي بناه الحجاج فإنه لا يختلف عن الأول في جملة تخطيطه، ولكن قبلته حولت نحو الجنوب بزاوية مقدارها ٣٤ درجة عن قبلة الجامع الأول، أي إلى الاتجاه الجنوبي الغربي بمقدار ١٧ درجة.

تحرير العرب لمصر:

عندما قدم الخليفة عمر (رض) بلاد الشام استأذنه عمر بن العاص في تحرير مصر، فعقد له على أربعة الآف رجل، سار بهم في جوف الليل، ووصل إلى (رفح) وعلى آخر حدود فلسطين، ثم سار حتى نزل قرية قريبة من العريش، ودخل العريش يوم عيد الأضحى سنة ١٩ هـ/ ٦٤٠ م، وعندما التقى بالأرطبون قائد الروم في (بلبيس) تم له النصر، فاستولى على حصن (عين شمس)، ثم حاصر المسلمون حصن (بابل) وفتحوه، وبعدها توجهوا إلى الإسكندرية، وظل عمرو على حصارها أربعة أشهر تم له بعدها النصر، فحرر (دمياط) وبقية المدن المصرية.

مدينة الفسطاط:

بعد تحرير مصر اختط العرب معسكرا لهم في الفسطاط، وتقاسمت القبائل خططها، وسميت كل خطة باسم القبيلة التي اختطتها، وأخذ الناس يتسابقون على بناء الدور وتعمير المساجد فيها، ولم يمض زمن طويل على تخطيط هذه المدينة حتى صارت غاية العمارة ونهاية الحسن، فيها الدور الأنيقة والمساجد العامرة، والحمامات الباهية، والقياسر الزاهية، والمنتزهات النضرة، وقد اتخذ عمرو الدار التي أقامها بالقرب من المسجد مقرا للحكم، واتخذها الولاة من بعده سكنا للإمارة، وكانت أكثر دور الإمارة شهرة دار عبد العزيز بن مروان في العصر الأموي وهي التي أنشأها سنة ٦٨ هـ ٦٨٧ م، وسماها (دار الذهب)، وجعل لها قبة مذهبة.

مسجد عمرو في الفسطاط:

وضع عمرو بن العاص أساس أول مسجد جامع في الفسطاط، وصلى فيه يوم الجمعه سنة ٢١ هـ ٦٤٢ م، وجعل البناء يشغل أرضا مستطيلة الشكل طولها ٥٠ ذراعا وعرضها ٣٠ ذراعا وجعل الجدران كلها من اللبن، وله بابان في كل من أضلاعه ما عدا جدار القبلة، وفرشت الأرض بالحصى، وأقيم السقف على جذوع النخل، ثم استبدلت بعد ذلك بأعمدة كانت موجودة في أبنية قديمة، ولم يكن للمسجد صحن متسع، بل كانت الشوارع تحيط بالمسجد من جهاته الأربع.

توسع هذا المسجد في زمن الأمويين، وقد أمر معاوية بن أبي سفيان عامله مسلمة بن مخلد بتوسيع المسجد، وشيد له أربعة أبراج للأذان

في أركانه الأربعة، وفي سنة ٧٧هـ/ ٦٩٦ م، هدم الخليفة عبد العزيز بن مروان بعض الجدران القديمة ووسع المسجد من الجهتين الشمالية والغربية، وفي سنة ٧١٠ م أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك عامله قرة بن شريك أن يهدم جميع البناء القديم حتى الأسس ويقيم مكانه بناءً جديدا، وضم إليه دار عمرو بن العاص والطريق الذي كان يفصل بينهما.

وتضاعفت مساحة المسجد في زمن عبد الله بن طاهر عامل الخليفة المأمون على مصر سنة ٢١٢ هـ ٨٢٧ م، وصار للمسجد خمس صوامع، وعندما حدث حريق في المسجد سنة ١٧٢ هـ/ ٨٨٨ م قام خمارويه بن أحمد بن طولون بتعمير المسجد وتجديده.

وأجريت إصلاحات كثيرة في المسجد في العهد الفاطمي وعصر المماليك، وفي العهد العثماني أمر الأمير العثماني مراد مُحَّد بك بهدم المسجد كله،وأعادة بنائه ولكن بتصميم جديد، ولما تم تجديد عمارة المسجد في القرن العشرين زالت معالمه القديمة ولم يبق منه إلا القليل.

العرب في تونس

بعد أن أتم عمرو بن العاص تحرير مصر انطلق إلى الغرب فحرر (برقة)، ثم واصل الزحف نحو الغرب قاصدا طرابلس الغرب، فنزل حول أسوارها وحاصرها مدة من الزمن حتى تمكن من دخولها، ثم عاد إلى مصر. وفي سنة ٤١ هـ/ ٦٦١ م أرسل الخليفة عمر (رض) القائد عقبة بن نافع لتحرير تونس، وقد ازدادت حملة المسلمين هذه في زمن معاوية، وتم تحرير تونس في سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م وأسس عقبة مدينة القيروان في وسط

الصحراء لتكون مقرا للجيوش العربية، ورغم انعزال هذه المدينة فقد أخذت تنمو وتكبر، وقد ظلت ما يقرب من أربعمائة عام المدينة الرئيسية في شمال أفريقية والمغرب.

مسجد القيروان

أنشأ عقبة بن نافع في وسط القيروان جامعه الشهير سنة **٥٥** هـ/ **٩٧٥** م فكان آية في الروعة، كما اختط دار الإمارة، وجعل الدور من حولها.. وعندما هدم البربر هذا المسجد في تمرد قاموا به بعد عقبة جاء بشير بن صفوان واليا على القيروان في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك فأعاد بناء المسجد ووسعه، وحرص على ألا تتغبر معالمه الأولى بالرغم مما أدخله على بنائه من الإصلاحات العديدة..

ثم جرت إصلاحات في المسجد وزيادات مهمة في زمن زيادة الله بن ابراهيم الأغلبي سنة ١١٨ هـ ٨٣٦ م، وأصبح من أعظم المساجد في شمال أفريقية؛ فلزيادة الله الفضل في توسعة رواق المحراب، وتجديد المحراب وزخرفته.

حكم الأغالبة تونس وتمتعوا بنوع من الاستقلال تحت أمرة الخلفاء العباسيين، وقد اشتغل ثلاثة من أمرائهم بالتتابع في تعمير المسجد وتوسيع حرمه، وقد زاد إبراهيم بن أحمد بن الأغلب عام **١٥٩** هـ/ **٨٧٥** م، في طول بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بقبة باب البهو على آخر بلاطة المحراب، ولهذا يمكن القول أن البناء الحالي هو من منجزات الأغالبة.

وفي المسجد ما عدا قبة المحراب خمس قباب أخرى تقوم إحداها في نهاية رواق المحراب مما يلي الصحن، وتتوج قبتان أخريان مدخلي الحرم من مشرقه ومغربه، والقبة الرابعة تعلو مدخلا آخر ينفذ منه إلى المجنبة الغربية في أسكوبها السابع، والقبة الأخيرة تتوج مئذنة المسجد.

وتعد مئذنة المسجد هذا أقدم المآذن الخالدة في العمارة الإسلامية، ويرجع تاريخها إلى عام ١٠٦هـ/ ٧٢٤ م، وتمتاز المئذنة بقاعدتها المربعة المرتفعة بانحدار وميل داخلي، كما تمتاز بتراجع طوابقها العليا وتدرجها عن سمت هذه القاعدة.

وتنتصب المئذنة مقابل القبلة بطوابقها الثلاثة المؤلفة من أبراج رباعية على فناء صحن الجامع الواسع، والبرج الأعلى الذي يغطيه قبة لا يرجع كما يبدو إلى الترتيب الأول، ويبلغ طول قاعدة المئذنة حوالي ١١ مترا، والارتفاع الكلي للطوابق الثلاثة ٣٢ مترا.

البركة المائية في القيروان

إن أهم أعمال الأغالبة وأكثرها أصالة هي البركتان الكبيرتان اللتان حفرتا لكي تسقيا القيروان، فالبركة الأولى ذات سبعة عشر ضلعا، تتجمع فيها مياه السيل ثم تجري لتخزن في البركة الثانية، وهي أكثر اتساعا من الأولى، وهي ذات ثمانية وأربعين ضلعا، وقد أحيطت كل من البركتين بجدار قوي مدعم من الخارج والداخل بمساند مستديرة، وفي وسط البركة الكبيرة تقوم استراحة ذات صفة تزينية للبركة.

جامع الزيتونة في تونس:

يعتبر هذا المسجد من المساجد الكبيرة في تونس، فيعرف بمسجد تونس الكبير، ويذكر المؤرخون أن حسان بن النعمان أنشأ هذا المسجد عندما دخل تونس في سنة ٨٤ هـ/ ٧٠٣ م، وتذكر بعض المصاردر التاريخية أن جامع الزيتونة أنشئ سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م، إثر فتوحات عبد الله بن الحجاب كما أن زيادة الله بن الأغلب زاد في مساحته، وبلغ أكبر مساحة في أيام بني حفص.

يقع هذا المسجد في الوسط الهندسي من مدينة تونس، ويتقاطع فيه شارعان رئيسيان، وطراز بناء سور الجامع أشبه برباط أو ثكنة لحراسة الثغور، فهذا السور يتركب من أربع قلاع وفي كل ركن قلعة صغيرة مستديرة للاستكشافات والاستطلاع والدفاع، ويشغل المسجد مساحة مستطيلة، ويتكون من صحن مكشوف يحده من الجهة الجنوبية الشرقية رواق القبلة، بينما يشرف على الصحن من الجهات الثلاث الأخرى سقيفة معقودة محمولة على أعمدة مكونة من بلاطة واحدة. ويتكون رواق القبلة من ١٧ بلاطة، وقد جعلت البلاطة الوسطى أوسع من بقية البلاطات حتى تتسع لموكب الأمير أو الملك.

وللمسجد قبتان تقعان في رواق القبلة إحداهما تعلو المربع الواقع أمام المحراب، والثانية تشغل المنطقة المربعة في نهاية البلاطة الوسطى لصحن المسجد، وكان للجامع أربعة صوامع مستديرة للأذان وحراسة الثغور لا تزال اثنتان منها باديتان.

رباط سوسة:

يعرف هذا البناء بقصر الرباط، بناه إبراهيم بن الأغلب سنة ٣٠٧ هـ/ ٨٢١ م، وهو على شكل بناء محصن مربع التخطيط، ومساحته حوالي ٣٩× ٣٩ مترا، وفي السور الخارجي ثمانية أبراج: أربعة في الأركان وواحد في منتصف كل ضلع من أضلاعه الأربعة، وهذه الأبراج كلها نصف دائرية ما عدا برج المدخل في الحائط الجنوبي وبرج الركن الجنوبي الشرقي فشكلهما يقرب من المستطيل، والأخير استخدم كقاعدة للصومعة، ويحيط بفناء الرباط أو صحنه من الجهات الثلاث الشمالية والشرقية والغربية سقفيات ذات عقود محمولة على دعائم وكل منها مغطاة بأقبية نصف أسطوانية، وخلف كل سقيفة غرف مستطيلة مغطاة بأقبية نصف أسطوانية وعددها ٢٦ غرفة، ويبلغ عدد الغرف التي في الدور الأسفل ٣٣ غرفة، وقد اتخذت الغرفة الواقعة في الجهة القبلية مسجداً، وهي مكونة من ١١ بلاطة مغطاة بأقبية أسطوانية.

المدرسة الغربية الأندلسية

الفترة الثانية لتطور فن العمارة العربية الإسلامية

العرب في الأندلس:

إن أقصى ما وصل إليه العرب في فتوحاتهم في الغرب بلاد الأندلس وقسم من جنوب فرنسة، ففي سنة ٩١هـ /٧١١م أمر (موسى بن نصير) عامل الدولة الأموية على شمال أفريقية، قائده (طارق بن زياد) باحتلال بلاد الأندلس،

فعبر طارق البحر والتقى بالملك الذريق وانتصر عليه، وتوجه بجيشه إلى مدينة طليطلة التي استقبله أهلها بالترحاب وفتحوا للعرب الأبواب، ثم واصل تقدمه نحو برشلونة، وهكذا تم له فتح بلاد الأندلس في أقل من عامين، وعندما رجع إلى أفريقية عين (عبد العزيز بن موسى بن نصير) واليا على الأندلس، واتخذت قرطبة مقرًا للدولة.

وعندما انتهى حكم الأمويين في الشام تمكن (عبد الرحمن الداخل) حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك، من النجاة بطريقة عجيبة من المذبحة الكبرى التي دشن بها العباسيون عهدهم الجديد في العراق، وبعد سنة من وصوله إلى بلاد الأندلس كلاجئ نودي به أميرا على قرطبة سنة ١٣٨هـ/

٧٥٥ م، فكانت الأندلس أول مقاطعة انشقت عن الخلافة العباسية، ثم تبعتها مقاطعات أخرى.

مدينة قرطبة :

قرطبة مدينة في وسط سهل فسيح يمتد على ضفتي الوادي الكبير، كان أول من دخلها من العرب (مغيث الرومى) قائد طارق بن زياد، وفي عام ٩٨ هـ/ ٧١٦م نقل العرب عاصمتهم من أشبيلية إلى قرطبة في زمن ثالث ولاة بنى أمية على الأندلس (الحرب بن عبد الرحمن الثقفي) .

كان بنو أمية ورجال دولتهم ذوي ولع بالمباني والقصور وزينة البيوت والحدائق، فقد أنشأ (مالك الخولاني) رابع ولاة الأندلس، قصر الإمارة في قرطبة، ثم أنشئت قصور الخلفاء فيما بعد، ومن المعروف أن تاريخ بني أمية في الأندلس مر في عصرين: عصر الإمارة، أي أيام كان الحكام يسمون أمراء، ويمتد من سنة ١٣٨ إلى ٣١٧ هـ (٧٥٦ إلى ٩٢٨ م)، والعصر الثاني عصر الخلافة، أي من يوم اتخذ عبد الرحمن الثالث بن مُحَمَّد لقب الخليفة، ولقب نفسه بالناصر لدين الله وذلك عام ٣١٧هـ/ ٩٢٨ م، إلى نهاية حكم آخر خلفائهم وهو هشام الثالث (المعتمد) في سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١ م. وخلال عصر الإمارة، وخاصة أيام عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط أصبحت قرطبة من أجمل عواصم الدنيا في ذلك الزمن، وفي عصر الخلفاء صارت أعظم مدينة في أوروبا وثاني مدينة في العالم من بعد بغداد.

بدأ عبد الرحمن الداخل بإنشاء دواوين الدولة، وجعلها كلها الى جانب قصر الإمارة وحوله في منطقة واسعة عرفت بعد ذلك بقصور الإمارة، فشيد قصوره المعروفة بالكامل والروضة والزهراء والمبارك، وكانت هناك أيضا مباني الإدارة التي تعرف بالبيوت، كبيت الوزراء، وبيت المال، وبيت الأحفاد.. وغيرها، وكانت المباني داخل الحرم الملكي ولكنها كانت منفصلة عنه بجسور ضخمة وكان لسور قرطبة أبواب كثيرة، أهمها باب الوادي الذي يؤدي إلى قنطرة الوادي ثم إلى ضاحية شقندة.

مسجد قرطبة:

يروى أن المسلمين عند فتحهم قرطبة اتخذوا نصف كنيستها المعروفة بكنيسة سانت فنسنت مسجدًا لهم، وأن هذه الكنيسة ربما كانت معبدًا رومانياً قديماً، ومن الثابت أن الأمير عبد الرحمن الداخل كان المؤسس الأول لجامع قرطبة الكبير سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥ م ، وذلك بشراء بناية الكنيسة، ثم أخذ المسجد يتوسع وبنيت له صومعة في زمن هشام الأول بن عبد الرحمن، وتوسع المسجد في زمن كل من عبد الرحمن الثاني وحمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور، وزير هشام الثاني في عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧م .

إن هذا المسجد الذي لا يزال يثير إعجاب الزائرين حتى الآن ليس من إنشاء حاكم واحد، فقد تعاقب في الإشراف على عمارته أربعة حكام تابعوا إتمام العمل الأول، ويمتاز هذا المسجد بمحرابه المكون من غرفة تؤدي إليها بوابة رائعة الزخارف، وأقواس على شكل حدوة الفرس،

زينت حجارة العقد بالفسيفساء، كما امتاز المسجد أيضا بأقواسه المزدوجة التي أعطت المسجد شخصية يتميز بها عن الجوامع الأخرى، وقد لجأ المهندس المعماري إلى هذا الحل ليزيد في ارتفاع سقوفه حتى تصبح متناسبة مع سعة وفخامة بنائه.

ويشغل المسجد اليوم أرضا مستطيلة يبلغ طول الضلع الممتد من الشمال إلى الجنوب ١٧٨ مترا، والضلع الممتد من الشرق إلى الغرب ١٢٥ مترا، فتكون المساحة على هذا الأساس ٢٢٢٥٠ مترا مربعا، ويتكون حرم الجامع من بهو كبير فيه تسعة عشر أسكوبا، والسقف قائم على ١٨ قنطرة متجهة من الشمال إلى الجنوب، ومساحة هذا البهو ١١٥ × ١٣٠ مترا، وفي داخل المسجد غابة من الأعمدة الرخامية بمختلف الأشكال والألوان، يبلغ عددها ١٢٩٣ عمودا.

وعندما استولى الإسبان على قرطبة شيدوا كنيسة على الطراز الغوطي في القسم الشمالي من الجزء الذي أضافه الحاكم للمسجد، وفي القرن السادس عشر شيدوا كنيسة أوسع من الأولى، كما أن المئذنة أصاب القسم القسم العلوى منها تلف كبير وتصدع بسبب زوبعة قوية اجتاحت قرطبة عام ١٥٨٩ م فأعيد بناؤها على الطراز الرومانكى وهي اليوم كتدرائية عذراء الصعود.

مدينة الزهراء:

عندما ضاق بلاط عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر رغم سعته، لكثرة الوفود التي ترد إليه من سائر أنحاء العالم قرر أن يبني لنفسه مقرًا

يليق بفخامة ملكه وجلال خلافته، فأنشأ مدينة الزهراء، واختار موقعها غرب قرطبة وعلى بعد ٨ كم، وانشأها على السفح المنحدر والمؤدي إلى الوادي الكبير بثلاثة أحياء أو طبقات: الأولى تتضمن القصور والمساكن والأسواق، والثانية خصصت للحدائق والرياض، والثالثة للبساتين والحمامات والحانات والحراس، وقد هرع الناس الى الزهراء يشيدون البيوت والقصور فيها، ويشغلون بالأسواق والمتاجر في شوارعها، وازدحمت بالناس حتى أوشك عمرانها يتصل بالعاصمة قرطبة.

شرع الناصر في بناء قصره سنة ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦ م، واشتغل في البناء عشرة الآف صانع، وقد نصب فيه فوارة ماء ازدانت حافتها بالتماثيل، وكان للقصر في كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب انعقد على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وقامت هذه الحنايا على أعمدة من الرخام الملون وكان في هذه المدينة محلات للحيوانات ومسارح للطيور محفوفة بالشبابيك، وفي غضون ثورة البربر سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١٠م، سبى ساكنو الزهراء وأضرمت النار فيها وآل القصر والمدينة إلى خراب ولم يبق منها إلا آثار بعض الجدران.

أشبيلية:

من الآثار الباقية في الأندلس القصر المعروف (الكازار) أي القصر في أشبيلية، وإن أقدم قسم من هذا القصر بناه المهندس الطليطلي لعامل الموحدين سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠م، ثم أعيد بناؤه على الطراز العربي بأمر الملك (بطرس الصارم) سنة ٧٥٥ هـ/١٣٥٣م، واستخدم في تشييده

الصناع المدجنين، ونزلته الأسرة المالكة بضع سنوات، ولهذا القصر بهو واسع يتوسطه صفان من الأعمدة الرخامية وعليه قبة من الخشب المحلى بالزخرفة والنقوش، وحيطانه منقوشة أيضًا من الأعلى بنقوش من المقرنصات الجبسية الأنيقة المظهر الدقيقة الصنع، وصممت في أعاليه فتحات يتسلل منها النور والهواء.

وللقصر دار يكتنفها ممر شرقي يحيط به أربعون عمودا من الرخام تعلوها أقواس رائعة يقوم عليها سقف الممر، كل هذه محلاة بنقوش تنتهي في الأسفل بخط من القاشاني الجميل، وأعظم قسم من هذا القصر قاعة الاستقبال، وتسمى قاعة السفراء، وهي ذات شكل مربع تعلوها قبة من الخشب المزخرف، وعند كل جهة من جهاتها الأربع عمودان من المرمر يحملان مقصورة جميلة، ويحيط بهذه القاعة بهو عظيم.

صومعة الخيرالدا:

وتعتز مدينة أشبيلية بأثر آخر للموحدين هو برج (الخيرالدا) الذي كان في البدء مئذنة للمسجد الجامع فيها، وقد بنى هذا البرج سلطان الموحدين (يعقوب بن يوسف المنصوري) عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٤ م، ويزدان هذا البرج بقناطر مسننة جميلة لم يكن يعرف هذا الطراز الغوطي المسنن من قبل، أما تنسيق هذا البرج العام والترتيب الداخلي لها فهو ذاته كما في الأبراج التي بناها العرب في بلاد المغرب، فهي مربعة يصعد إليها مصطبتها العليا عن طريق منحدر يدور حول نواة مؤلفة من غرف منشأة بعضها ببعض، والجسم المركزي يتصل في الأعلى بتاج قنديلي مربع، أما

العناصر الزخرفية فهي أقواس مسدودة تحيط بالنوافذ، وهذه متباعدة أو مجمعة بشكل طيقان زخرفية وألواح من المشبكات مقتبسة من الأقواس المتصالبة.

لقد أفسد منظر الخيرالدا عندما أزال الإسبان القمة المخرمة للمنارة وأنشئت مكانها أبنية مربعة تنتهي بقبة عليها كتابة وصورة امرأة تمثل الإيمان.

مدينة طليطلة:

عندما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس واستقل كل أمير في البلاد التي تحت إمرته قامت عدة دويلات عرف عصرهم بعصر (ملوك الطوائف)، وعلى الرغم من الانحلال السياسي الذي تجلى في هذا العصر فإنه يعتبر من أزهى عصور الحضارة الإسلامية في الأندلس، إذ كان كل أمير منهم يحاول أن يحاكي أو ينافس خصمه من نواح شتى ومن ضمنها الإعمار والانتشار.

شيد (المأمون بن ذي النون) قصرا فخما في طليطلة، ضاعت معالمه اليوم، ولكن (المقري) وصفه بكونه قصرا عظيما في وسطه بحيرة، وفي وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وقد جلب المهندسون الماء إلى رأس القبة بتدبير محكم يستوجب الإعجاب، وكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها فتصبح قبة الزجاج في غلالة من ماء، والمأمون جالس تحتها لم يصبه من الماء شيئ، وتوقد فيها الشموع فيضفي على جمالها روعة وبهاء.

يرقد هذا القصر على صخرة عالية تطل على نهر التاجة، مقابل إحدى القناطر التي شيدها الرومان، ولهذا القصر باحة واسعة، وغرف كبيرة تطل على الوادي الكبير، وقد انهدم أثناء الحرب الأهلية الإسبانية لاعتصام الثوار فيه لحصانته ومنعته.

مدينة غرناطة:

إذا ما جئنا إلى غرناطة نقع تحت تأثير سحرها العجيب الذي تحدث به كل من أسعده الحظ بزيارتها، لقد تفنن الشعراء والأدباء ما شاء لهم التفنن في وصف ما تحويه من منازل جميلة وحدائق غنَّاء، وفوق كل ذلك قصور الحمراء المسحورة القائمة في قلب تلك الواحة البهيجة و(جنة العريف) ذلك المنزل الخلوي الساحر، إن أهمية غرناطة بالنسبة لتاريخ العرب في كونها ظلت قائمة بيد العرب بعد سقوط قرطبة وأشبيلية وطليطلة واستيلاء الإسبان عليها، وقد أصبحت غرناطة مركزًا للحركة الفكرية، وازدهرت فيها المدنية العربية كل الازدهار، وعندما أخذ العرب يتراخون في حياة البذخ والترف والنعيم أغار عليها (فردينان) و(إيزابلا) سنة ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ م، وسقطت هذه المدينة العربية، وانتقل (أبو عبد الله) آخر ملوك المسلمين في إسبانيا إلى شمال أفريقية تاركًا أجمل ما وصل إليه الفن العربي في كل زمان ومكان.

قصر الحمراء:

على هضبة مرتفعة في الطرف الجنوبي من مدينة غرناطة بنى (مُحَمَّد بن يوسف بن نصير بن الأحمر) الغالب، سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٨ م، داره

الشهيرة المعروفة بقصر الحمراء، ويقوم هذا القصر على أنقاض قلعة قديمة تسمى الحمراء لحمرة لون الحجارة التي بنيت منها، ثم قام ثلاثة خلفاء من بعد الغالب بتوسيع القصر وزادوا في زينته وزخرفته، حتى صار آية من آيات الهندسة الفنية في إسبانيا، ولا تزال الحمراء تبهر عيون الناظرين بما فيها من بدائع الزخرفة والأفاريز ذات النقوش العربية والرسوم الجميلة.

في هذا القصر أقام بنو نصر بلاطهم الذي أحيا لوقت ما مجد الأندلس الإسلامي الذي عرف في زمن الأمويين وبني عباد، وأصبحت غرناطة وريثة قرطبة وخليفتها في رعاية العلم والفن، لقد بلغت أصول الزخرفة الأندلسية العربية أوجها في الحمراء.. إن هذا القصر الشامخ وما فيه من إفراط في التزويق بالفسيفساء والأشكال المقرنصة المختلفة قد جرى تصميمه وإنشاؤه على مثل هذا النطاق من السعة والحجم بحيث يعتبر بحق أروع أثر معروف في صناعة البناء، وتشير الكتابات المنقوشة على الحيطان إلى أن أكثر الزخرفة الداخلية هي في عهد أبي الحجاج يوسف (٧٣٤-٧٥١هـ / ١٣٣٣-١٣٥٤ م) وهو الذي أتم بناء هذا القصر.

إن قوام قصر الحمراء ثلاثة أقسام: القسم الأول، وهو الذي يعرف بالمشور، وفيه يعقد الملك مجلسه، والثاني قسم الاستقبالات الرسمية، ويشمل الديوان وقلعة العرش، والثالث قسم الحريم، ويضم المساكن الخاصة بالملوك ونسائهم. إن من أبدع أجزاء هذا القصر (حوش الريحان) الذي يطل على فسقية الحوش، وكذلك (قاعة العدل) و(قاعة السفراء)

الداخلة في برج قمارش. إن قاعة السفراء هي أفخم وأكبر قاعة في القصر، مربعة الشكل تعلوها قبة خشبية ذات نقوش مذهبة، وقد نقشت جدران القاعة بنقوش متغايرة في غاية الإبداع والإتقان.

أما (صحن السباع) فهو أكثر أجزاء القصر شهرة، وقد شيدت في منتصفه فسقية رخامية من عدة أحواض أكبرها قائم على تماثيل أسود من الرخام عددها اثنى عشر أسدا، يخرج من فم كل أسد فوارة ماء. إن أبعاد هذا الصحن ٢٨×١٦ مترا تحيط به بانكات من العقود مزينة بالنقوش تعلوها مساحة مثقبة بزخارف غاية في الإبداع وتطل على هذا الفناء قاعة بني سراج وقاعة الأختين اللتان تمتازان بوفرة زخارفهما المقرنصة والنقوش النباتية والكتابات العربية.

أما مسجد القصر فلا يقل عن باقي أجزاء القصر بهاء وجمالا من حيث الزخرفة والنقوش، وفي حمام القصر فسقية رخامية يحيط بها أربعة أعمدة من المرمر تحمل السقف، وحول الحمام في الطابق العلوي منه شرفات كلها غنية بالنقوش المذهبة، وفي قبة الحمام فتحات للإضاءة مثبت عليها قطع من الزجاج الملون.

إن الجبل الذي بني عليه قصر الحمراء محاط بسور علوه عشرة أمتار تعلوه أبراج عدة، فعندما يأخذ الزائر في الصعود إلى هذا الجبل متبعا مجرى (نهر حدره)، حيث تنحدر مياهه في الوادي العميق يرى تجاهه أسوار الحمراء متصلا بعضها بالبعض الآخر، وإذا عبر النهر وتسلق الطريق الصخري الوعر تبدو عن يمينه أسوار الحمراء وعن شماله طريقا يصعد إلى

قصر (جنة العريف)، من هذا المكان المرتفع المتسلط على مدينة غرناطة، كان ملوك العرب بتمتعون وهم جلوس على مقاعدهم بعزلة وكأنهم في وسط المدينة، يرقبون بأعينهم كل مل يجرى فيها وهم يعيدون.

هذا هو قصر الحمراء الذي لا يزال شامخًا على الرغم من الزلازل التي أصابته، والمعارك التي جرت في داخله وألحقت ببنايته وزخارفه أضراراً جسمية، فهو كالطود يحج إليه السياح فيثير فيهم الإعجاب والتقدير.

المسلمون في المغرب العربي

١ ـ العرب في الجزائر:

عندما امتدت فتوحات العرب إلى الغرب قامت في الجزائر دول إسلامية عديدة، وقد تمتعت بمتعة الاستقلال أيام قامت فيها (دولة عبد الواد) أو (الدولة الزياتية) التي استمر حكمها ثلاثة قرون،

من أوائل القرن الثالث عشر إلى السادس عشر الميلادي ، ومن أشهر ملوكهم (أبو حمو الثاني) الذي تولى أمور المملكة سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩ م، وكان مقر هذه الدولة (تلمان)، واسمها القديم (أغادير)، شيدها (مولاي إدريس) على أنقاض مدينة (بوماريا) الرومانية، فأصبحت من المراكز الإسلامية المهمة في الجزائر، وكلمة تلمان بربرية معناها (الينبوع)، وقد وصفها (الإدريسي) في القرن السادس للهجرة فقال: إن لها نهرًا يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين، وأن هذا الوادي يمر في شرقي المدينة، وعليه أرجاء كثيرة.. غلاتها ومزارعها كثيرة، وفواكهها جمة، وخبراتها شاملة ووصفها يحيى بن خلدون فقال: "كان للملوك قصور زاهرة، اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقة، والبساتين الرائعة، زخرفت عروشه، ونمقت غروسه، وتناسبت أطواله وعرضه، فأزرى بالخورنق والسدير".

قصر أبو حمو الثاني في تلمسان:

كان للملك (أبو حمو الثاني) قصر في تلمسان، فيه سعة ومنجانة، وصفها يحيى بن خلدون فقال: "وخزانة منجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة، قائمة المصنع تجاهه – يعني السلطان – بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحه، ويختاله فيها أرقم خارج من كوة بجدر الأيكة صعدا، وبصدرها أبواب مجوفة، عدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان مجوفان، أطول من الأول وأعرض فوق جميعها، ودوني رأس الخزانة قمر أكمل، يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك، واحد منهما صنجة صفر يلقيها إلى داخل الخزانة فيرن، ويريد الأرقم أن ينهش أحد الفرخين فيصفر له أبوه، فهناك يفتح باب الساعة الراهنة، وتبرز منه جارية محتزمة، صورت في أحسن صورة، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطور، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة، ويسراها موضوعة على فيها، كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين، حيل أحكمت يد الهندسة وضعها، وراض تدبير الخلافة أعلى الله مقامة شماسها".

جامع تلمسان:

إن هذا الجامع قطعة جميلة من الفن المعماري الأندلسي الذي انتقل إلى شمال أفريقية، بنى هذا الجامع (حمو بغمور روسان) من بني زيان في سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٦ م، وزاد عليه (علي بن يوسف بن تاشفين) كثيرا من الزخارف والنقوش، وحرم الجامع واسع الرقعة، فيه ١٣ أسكوبا تؤلف ١٢ رواقا، ومحراب الجامع قطعة لمحراب جامع قرطبة، وفي الجامع ثريات

ذات ٣٦٥ مصباحاً تشير إلى عدد أيام السنة، وأبرز ما في هذا الجامع أقواسه التي عقدت على شكل حدوة الفرس، ذات مقرنصات جميلة، أما القبة المعرقة التي تتقدم المحراب ففيها تخريم جميل معقد، وتتكون هذه القبة من ١٦ قوساً خفيفة متماسكة بصيغ جصية معرفة تتشابك وتحدد قلنسوة ذات مقرنصات.

العرب في مراكش

جاء فتح المسلمين لمراكش متأخرا بالنظر لبعدها عن مركز الخلافة، وقد تم لـ (حسان بن النعمان) فتحها في سنة ٧٧هـ /٦٩٦م، في خلافة عبد الملك بن مروان، ومنها عبر طارق بن زياد لفتح الأندلس، قامت في مراكش (دولة الأدارسة) ومؤسسها (إدريس بن عبد الله بن الحسن) الذي فر من وجه الخليفة العباسي المهدي، واستعان بقبائل البربر على تأسيس دولته، وأنشأ ابنه (إدريس الثاني) جامع القرويين في مدينة فاس سنة ٢٤٥هـ /٨٥٩م .

جامع القرويين:

شيد هذا الجامع في محلة القرويين، وهي المحلة التي استوطنها أهالي القيروان الذين هاجروا إلى فاس، وكان عددهم ٣٠٠٠ مهاجرا، وفي رحاب هذا الجامع الكبير بدأت الدراسات الأولية في اللغة والدين والشريعة حتى صار جامعة للدراسات الإسلامية العليا، وتخرج منها الفقهاء والوعاظ ورجال الدين، وقد ذكر بعض المؤرخين أن أم المؤمنين (فاطمة الفهرية) هي التي أنشأت هذا الجامع الذي يقوم على ٣٠٠ عمودا،

وتتوسط حرمه ثريا عظيمة، وفيه مكتبة ضخمة تضم آلاف الكتب والمخطوطات في مختلف العلوم، وإلى جوار هذا الجامع شيد السلطان (أبو سعيد عثمان) مدرسة (العطارين)، كما شيد مدرسة (البوعنانية) التي تعد آية في الروعة والجمال من حيث زخرفتها ونقوشها.

ويختلف مخطط جامع القرويين كثيرًا عن مخطط جامع تلمسان وجامع الجزائر، ففي حرم هذا الجامع ١٩ أسكوبا تمتد فيه بصورة موازية للواجهة ولجدار القبلة مما يذكرنا بالمساجد الإسلامية الأولى في مصر والشام، وقد بقي هذا المخطط من أكثر الأشكال اتباعا في أبنية مدينة فاس. وفي هذا الجامع نوعان من الأقواس يقطعان بصورة عمودية ممرًا محوريًا يؤدي إلى المحراب، ويحملان مجموعة من القباب معرقة، وأخرى مجهزة بالمقرنصات، وتحمل القبة التي تسبق المحراب اسم الأمير المرابطي (علي بن يوسف).

مدينة فاس:

تشتهر مدينة فاس بمنازلها المتلاصقة، ولا تستعمل النوافذ المطلة على الشوارع إلا نادرا، ولهذا فمنظرها الخارجي لا يدل عما في باطنها من جمال وفتنة.. إن طراز بناء البيوت يكاد يكون متشابها ومتقاربا، فكل دار تتكون من غرف أو صالات للاستقبال تتوسطها ساحة مكشوفة تستقبل نور الشمس والهواء، وجميع الأبواب من خشب البلوط أو الساج المنجد والمزخرف بأبدع النقوش، وتعلو هذه الصالات غرف النوم التي تطل

نوافذها على ساحة الدار، وهناك نافورة للمياة وحديقة في بعض ساحات البيوت.

إن الطابع الغالب على أكثر هذه البيوت هو الطابع الأندلسي، ويرجع السبب في هذا إلى أن فاس كانت ملجأ أفئدة المهاجرين من الأندلس، ولهذا نرى طراز البناء فيها قد امتزجت فيه الفنون الأندلسية بالفنون المغربية الأصلية.

المرابطون:

قامت في المغرب بعد دولة الأدارسة دولة (المرابطين)، وكان المؤسس لها (يوسف بن تاشفين) وقد استمر حكمهم من سنة (٤٤٨ هـ إلى ٥٤٦ هـ/ ١٠٥٦ م الى ١١٤٨ م)، وأصل المرابطين قبائل رحل، كانت تسكن وراء الصحراء الكبرى حتى أطراف السودان، وقد استقر بهم المقام قرب المحيط الأطلسي، وعرفوا بـ (الملثمين)، وكان مؤسس دولتهم الأول (عبد الله بن يسن)، وقد دخلوا الإسلام، وعرفوا بالزهد والتقوى والحرص على تطبيق أحكام الدين الحنيف.

مدينة مراكش:

أسس المرابطون مدينة مراكش في سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م، واتخذوها عاصمة لهم، وبنوا لها سورا، وقد بنى (علي بن يوسف تاشفين) في مراكش مدرسة كبيرة تعرف اليوم بـ (الجامعة اليوسفية)، وكان تأسيسها سنة ٥١١ هـ / ١١١٦ م، وتتيح هذه المدرسة من خلال حلتها الوردية فرصة

الإعجاب بفسيفسائها ومرمرها وأخشابها المنقوشة نقشًا بديعًا يدل على مهارة وإتقان، ويطلق على مراكش اسم المدينة الحمراء نسبة إلى أن أكثر بيوتها مصبوغة من الخارج باللون الأحمر.

مدينة مكناس:

تختلف مكناس عن سائر المدن المغربية بمتانة أبنيتها القديمة، فيعد (باب النصر) الفخمة فيها آية من الفن والزخرفة والإتقان، وإلى جانب ذلك فإنها تشتهر بحدائقها الغناء، وحصونها المنيعة، وفي وسط هذه المدينة ضريح (المولى إدريس الثاني) مؤسس المدينة، وقد زينت جدرانه بأروع النقوش، ويتصل هذا الضريح بجامع كبير في وسطه حوض ونافورة ماء تستعمل للوضوء، وفي الجامع جناح خاص للنساء.

الموحدون:

ظهرت بعد دولة المرابطين في المغرب دولة الموحدين، وهؤلاء في الأصل سكان جبل السوس الواقع في الجنوب من مراكش، وكان زعيمهم (ابن تومرت)، وهو شديد التعصب في أحكام الدين، ضم الموحدون الأندلس إلى أملاكهم في المغرب، وبنوا المسجد الجامع في أشبيلية، وقد انهدم هذا الجامع وأقيم مكانه كنيسة كبيرة فيها رفات (كرستوف كولومبس) مكتشف القارة الأمريكية، ولم يبق من الجامع غير مئذنته الجميلة (الخيرالدا).

احتفظ الموحدون بمراكش عاصمة لملكهم، وزادوا في عماراتها مساجد ومدارس وصوامع لا تزال آثارهم قائمة إلى اليوم، وقد بنى (عبد المؤمن) مارستانا تخير له موضعاً فسيحًا في مراكش، وأتقن فيه النقوش البديعة والزخارف المحكمة وأجرى المياه وجعلها تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها تمثال من رخام أبيض كما أوجد (بستان المسرة) وهو من متع مراكش ومفاتنها.

مسجد الكتيبة ومسجد تينمال:

أسس الموحدون مساجد عديدة، أهمها مسجدان يرجع تأسيسهما إلى عهد (عبد المؤمن) ٥٢٥ – ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ – ١١٦٣ م، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الموحدوية، فالمسجد الأول يقع بين أطلال (تيمنال) القرية الواقعة في الأطلس الأعلى حيث يبشر (أبو تومرت) بالمذهب الموحدي، والمسجد الثاني مسجد الكتيبة الذي يعد التحفة النادرة في مدينة مراكش، وهو إلى جانب صلاحه لكل الأغراض يعتبر من أكثر العمارات التي أنشأها المسلمون جمالاً.

يقدم لنا مخطط كل من هذين المسجدين تطورًا للشكل المطبق في قرطبة والمكرر في مساجد المرابطين، أن عدد الأساليب في مسجد تيمنال تسعة، وفي الكتيبة سبعة عشر أسكوبا، وتغطى هذه الأساكيب كما هو الأمر في قرطبة وتلمسان، الجملون والقرميد وهي متجهة نحو القبلة والأسلوب الأوسط اكثر عرضاً من الأساليب الأخرى، ويحمل قبة في نهايته المجاورة للمحراب، كما توجد قبتان أخرتان في طرفي المصلية في مسجد

تيمنال وبذلك يصبح ثلاث قباب فيه، وتصبح خمس قباب في الكتبية تتباعد بمسافات منتظمة عن بعضها ومشكلة من المقرنصات. لقد تم بناء مئذنة الكتيبة الرشيقة عام **٥٩٣** هـ / **١١٩٦** م، والبناء بالحجر الغشيم، ولكن تنسيقها وترتيبها الداخلي لا يختلف شيئا عن تنسيق مئذنة أشبيلية (الخيرالدا)، يعلوها جامور معدني مزين بكرات مذهبة.

مدينة الرباط:

اشتهرت مدينة الرباط بآثارها الإسلامية الخالدة، ففيها (جامع حان) الذي تشير إليه صومعته الشامخة وهي من آثار الموحدين، وشكلها مربع القاعدة وترتفع إلى **١٤٥** قدمًا، وفي وسطها سلم يرقى إلى اعلاها، والبناء من الحجر المنحوت، وزخارفها شبكة من معينات متجاورة، وهي من مميزات الفن المغربي.

شيد هذا الجامع (يعقوب المنصور)، وقد أظهرت الحفريات أن محيطه مستطيل عرضه **١٣٩** مترا، وطوله **١٨٨** مترا، وفيه ستة عشر بابا، وهي مزودة بدعامات بارزة، وفي الحرم أعمدة أسطوانية تقسمه إلى إحدى وعشرين أسكوبا، ولم يستكمل هذا المسجد بناءه.

انقسمت بعد هذا إمبراطورية الموحدين الكبيرة في النصف الأول من القرن الثالث عشر إلى أربع دول ظلت قائمة بين ضعف وقوة خلال ثلاثمائة عام، ففي تونس كانت السيطرة لل (حفصيين) الورثة الشرعيين للموحدين، وأصبحت تلمسان عاصمة لأسرة (بنى عبد الواد) و(الزبانيين)، وهم من قبائل جنوب وهران القديمة، غير أن بعض أنسباء

هذه القبائل وهم (بنو مرين) كانوا قد أقاموا في المغرب وحكموا فاس، فكانوا أكثر الملوك بأسا، وأوفرهم ثروة فكانوا سادة بلاد المغرب، ومن آثارهم المسجد الكبير في (تازة)، والمسجد الكبير في (فاس الجديدة)، كما شيدوا عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٦ م (مسجد المنصورة) التي تقع عند أبواب تلمان، ومسجد العباد، ومسجد الحلوي، ومن المدارس التي شيدوها (مدرسة الصهريج) و(مدرسة بوعنانية) وهذه مسجد كما هي معهد للعلم.

المدرسة العباسية

قيام الدولة العباسية وتأسيس بغداد:

انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين في سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠ م، واتخذ أبو العباس السفاح أول خلفاء العباسيين (قصر بن هبيرة) الواقع بين الكوفة وموقع بغداد مقرا له وسماها (الهاشمية).

وعندما تولى الخلافة أخوه أبو جعفر المنصور سنة ٧٥٤ م، كره سكنى الهاشمية بعد واقعة الراودنية ولمجاورتها لأهل الكوفة الذين أفسدوا جنده فارتابت نفسه مما يضمرون له، فخرج بنفسه ليختار مكانا يستقر به وبأهله وجنده، ويبني فيه مدينة على أن يكون هذا الموضع موضع خصب وخيرات، ويتوسط أقاليم دولته، ويشرف على أطرافها، ويتصل بسهولة بكل من أجزائها فاستقر رأيه على موقع بغداد الذي كان معروفا في أيام الدولة الساسانية.

تخطيط المدينة المدورة:

بدأ المنصور في تخطيط مدينته سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢ م ، وجعلها مدورة، وجعل عرض السور من أساسه ٥٠ ذراعا ومن أعلاه ٢٠ ذراعا، ووضع بيده أول لبنة ثم قال: "باسم الله، والحمد لله، الأرض يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين"، وهكذا تأسست المدينة المدورة وسميت بـ (دار السلام).

قد يظن الإنسان لأول وهلة أن مدينة المنصور هذه أنها من المدن الفسيحة الكبيرة، والحقيقة أنها لم تكن إلا حصنا عظيما، هيأ فيه المنصور جميع مرافق الحياة، ووسائل الدفاع، وجميع الاستعداد للسلم والحرب، ولذلك ترك المواضع القريبة من السورين العظيمين والمحيطين بالمدينة خالية من البناء لتمكنه من تحقيق النصر أثناء الحرب والهجوم على المدينة.

قسم المنصور مدينته إلى شوارع محددة، سماها السكك، يسكنها الذين يختارهم المنصور، ومنهم موظفوه ومواليه، كسكة الشرطة، وسكة سجنه المعروف بالمطبق وغيرها، وكان لهذه السكك أبواب وثيقة من طرفيها، واحتفر في المدينة نفقاً يمتد تحت الأرض إلى مسافة فرسخين خارج المدينة، أعده للهروب إن حاصره عدوه ودخل عليه في مدينته الحصينة، وكان في الرحبة الوسطى من المدينة قصر المنصور ومسجده الجامع، وداراً من جهة باب الشام يجلس فيها صاحب الشرطة، وسقيفة يقيم فيها صاحب الحرس، وكان حول الرحبة منازل أولاد المنصور ومنازل المقربين من خدمته، وبيت المال، والدواوين المختلفة.

وجعل المنصور للمدينة المدورة أربعة مداخل رئيسية محورية تواجه كل مدخل منها النقطة المنتصفة بين نقاط البوصلة على وجه النقريب وهذه المداخل هي: باب خراسان، وباب الشام، وباب البصرة، وباب الكوفة.

واختلف المؤرخون في تحديد مساحة المدينة المدورة وأبعادها، فقد ذكر اليعقوبي أن كل باب من المدينة يبعد عن الباب الذي يليه من خارج

الخندق خمسة آلاف ذراع، فعلى هذا الأساس يكون محيط المدينة عشرين ألف ذراعا، أما قطر المدينة فهو ٦٣٥٦ ذراعا أي حوالي ثلاثة كيلومترات تقريبا.

قصر المنصور ومسجده:

بنى المنصور في وسط المدينة قصرا سماه (قصر باب الذهب)، وكان في صدر القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا، وفي صدر الإيوان مجلس مساحته عشرون ذراعا في عشرين، وارتفاع الإيوان عشرون ذراعا، وعلى سطح الإيوان مجلس مثله، وفوق المجلس القبة الخضراء، وارتفاع الإيوان إلى أول القبة عشرون ذراعا، وارتفاع المجلس والقبة الخضراء ستون ذراعا، وكان على رأس القبة تمثال فرس عليه فارس في يده رمح.

وعهد المنصور إلى الحجاج بن أرطاة بإنشاء المسجد الجامع بلصق قصره، وذكر الخطيب البغدادي أن إنشاءه تم باللبن والطين، وجعل لأروقة المسجد أساطين من الخشب، وبنى المنصور مقصورة فيه ليصلى فيها ويحتمى بها، وقد مر على هذا الجامع عدة أدوار من حيث تطور عمرانه وتبدل أوضاعه، فالجامع الأول كان مربعا، طول الضلع الواحد منه ٢٠٠ ذراعا، وكان للجامع منارة، وفي الدور الثاني أعاد الرشيد بناء الجامع بالآجر والجص سنة ١٩٤هـ / ٨٠٧ م ، وفي الدور الثالث أضاف المعتمد إلى الجامع ديوان المنصور المعروف بدار القطان لتوسيعه، ثم زاد بدر مولى المعتضد الجامع جزءا من قصر المنصور أيضا تسمى المسقطات وتعرف

بالبدرية في ذلك الوقت، وبذلك أصبح ما ألحق بالمسجد من القصر مساويا لمساحة المسجد العتيق، وفتح الجدار المشترك بين المضاف والقسم العتيق ١٧ طاقة.

تعرض الجامع للغرق عندما غرقت بغداد سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٤ م، فأصلح بناؤه، والظاهر أنه سلم من الخراب أثناء حصار المغول لبغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٧م، وكان قائما حين زار ابن بطوطة بغداد سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٥م ، ولكن معالمه اندثرت ولم يبق له من أثر في نهاية القرن الثامن الهجري، ويعتقد بعض المؤرخين أن الشئ الوحيد الذي ظل محفوظا من هذا الجامع هو محراب المسجد الذي عثر عليه في جامع الخاصكي في بغداد وقد نقل إلى المتحف العراقي، وهذا المحراب قطعة حجرية واحدة منحوتة يغلب عليها طابع الصناعة السورية فالنقوش والزخرفة فيه هي أقرب في أسلوبها للأسلوب الهلنستي السوري لأي زخرفة أخرى.

بغداد الشرقية وقصورها:

كان من نتائج اتساع رقعة الدولة العباسية وامتداد نفوذها إلى أغلب بقاع المعمورة أن تدفقت الخيرات على بغداد مقر الخلافة، وعم اليسر فيها والرخاء، وتضاعفت الثروات وامتلأت خزائن الدولة بالمال الوافر، وكان ينفق القليل منها في تسيير أمور الدولة، والكثير منها كان يذهب إلى خزائن الخلفاء والأمراء والأعيان، ومنهم ينساب إلى التجار والصناع والزراع وغيرهم من صنوف الناس.

وكان لنمو المال المتدفق على علية القوم بشتى الوسائل والطرق أوضح الأثر في جلب الرخاء إلى تلك الطبقة، فأقبل كثير من أبناء الأمة إلى حياة البذخ والترف، وعمدوا إلى الإسراف في العيش، وانصرفوا إلى تشييد الدور الجميلة، والقصور المنمقة، فبالغوا في تجميلها وتزيينها بكل ما وهبوا من ذوق، وما أوتي الصناع من حذق ومهارة وذكاء، وكان الخلفاء ومن دونهم من أمراء ووزراء وغيرهم من الناس يتنافسون في جعل قصورهم ودورهم آية في الفن ويتناهون في إحكام مرافقها فتأتي مثلا في روعة البناء وجمال المنظر.

قصر جعفر البرمكي (**قصر الحسني**):

بنى هذا القصر جعفر بن يحيى البرمكي وزير الرشيد في الجانب الشرقي من بغداد وعلى شاطئ دجلة في أرض شارع المستنصر الحالي عند منتصفه، وجعل للقصر بستانا ذا رياض، وبالغ في الإنفاق عليه، فكان في هذا القصر ٣٦٠ مرفقا ما بين مجلس ومستشرف (بالكون) وحجرة وموضع تبريد وخزانة.

ولما فتك الرشيد بالبرامكة صار هذا القصر إلى المأمون، فطابت له سكناه، واتخذه منتزها، وأنشأ فيه حديقة للحيوانات، وبنى حوله منازل لخاصته وأصحابه وحاشيته، فسميت المأمونية، وعندما أصبح المأمون خليفة تزوج (بوران) بنت وزيره الحسن بن سهل، فسكن المأمون قصر الخلد الذي بناه المنصور في الجانب الغربي، وترك الحسن في القصر المأموني وكتبه باسمه، فوسعه الحسن وغلب عليه اسمه فسمي بالقصر الحسني، ثم

ابتاع هذا القصر الموفق بالله بن المتوكل، ونزل فيه، وصار من بعده إلى ابنه المعتضد بالله، فهدمه وأعاد إنشاءه وزاد فيه، واتخذه مقرا للخلافة، وبنى سورا وحصنه، وأمر أن يبنى فيه مطامير وهي سجون في سراديب عميقة مظلمة.

وعندما صار القصر بعد المعتضد إلى ابنه المكتفي بالله سنة ٣٨٩ هـ/ ٩٠١ م ، أمر بهدم المطامير وبنى مسجدا جامعا مكانها، وهو أصل المسجد الذي عرف باسم جامع القصر أو جامع الخلفاء، وهو الجامع الذي بنيت فيه أيام المغول الإيلخانيين المنارة الفخمة المعروفة بمنارة سوق الغزل.

قصر الفردوس وقصر الثريا:

بنى المعتضد نصر الفردوس في شمال القصر الحسني، وجعل فيه حديقة للحيوانات الأليفة وبركة ماء، وبنى في تلك الناحية وعلى بعد ميلين إلى شرق دار الخلافة، قصرا آخر سماه قصر الثريا، فكان هذا القصر موصلا بالقصرين اللذيم على ضفة دجلة بنفق طويل جعله عقودا طويلة، وكانت سيدات القصر وجواريهن يمررن فيه ويتفادين الظهور في الشوارع والطرق المكشوفة، واتخذ قرب القصر حيزا للوحوش من الحيوانات، وبساتين ذات أشجار مثمرة، وحدائق مزهرة، فكان طول القصر ثلاثة فراسخ، وقد أحرق فرسان المقتدر هذا القصر ونهبوا ما فيه من خزائن، وسلبوا ما فيه من نفائس ومتاع.

سور بغداد الشرقية وأبوابها:

إن التوسع العمراني الذي أصاب الجانب الشرقي من بغداد سور دار الخلافة أوجب إحاطة كل ما هناك من مبان ومحلات بسور وخندق واسع يضمان داخلهما دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي أنشأ حولهما، شرع المستظهر بالله في بناء هذا السور، قام الوزير المعروف بابن جهير التغلبي بتخطيطه سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٥م، وأتمه المسترشد بالله سنة ٥١٢ هـ ، ١١١٨م، وقد تهدمت منه أقسام أعادها المتقي لأمر الله ثم جدده الناصر لدين الله، وظل هذا السور قائما ما يقرب من ٨٠٠ عاما، ثم هدمه بسورة كاماة مدحت باشا والي بغداد التركي، وبنى بأجره بعض المباني الحكومية في بغداد، ويبلغ طول هذا السور ٩٦٨٨ مترا، وعرضه ٥.٥٠ مترا، وكان للسور ١١٧ برجا وأربعة أبواب رئيسية هي: في الشمال (باب السلطان) ويعرف اليوم بباب المعظم، وقد هدم هذا الباب بعد الاحتلال البريطاني لبغداد، وفي الشرق (باب الظفرية)، ويعرف اليوم بالباب الوسطاني، وهو لا يزال قائما قرب موقد الشيخ عمر السهروردي، وكان يطلق عليه أحيانا (باب خراسان)، وفي الشرق أيضا (باب الحلبة) جنوب باب الظفرية، وقد عرف باسم باب الطلسم، نسفه التراك سنة ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٧ م، وفي الحرب العالمية الأولى، وفي الجنوب (باب كلوذا)، ويعرف بالباب الشرقي، وقد هدمته أمانة العاصمة لغرض توسيع ساحة التحرير.

مدينة الرقة ومسجدها:

أنشأ المنصور مدينة الرقة على الفرات، وأقام فيها فصائل من جنده الخراسانيين للمحافظة على الجبهة السورية خشية غارات الروم عليها وقد جعل سورها بشكل حدوة الفرس أي انها مستديرة من جهات ثلاث والجانب الجنوبي مستقيما، وجعل أسوار المدينة مزدوجة كمدينة بغداد (المدينة المدورة) وفي السور الداخلي أبراج مستديرة بعد بعضها عن بعض ٣٠ مترا.

ويقع مسجد الرقة الكبير في النصف الشمالي من المدينة، وهو مستطيل أبعاده الداخلية ٩٢.٩٠ ×١٠٨.١٠ مترا. والجدار الخارجي مستند إلى دعامات نصف أسطوانية من الخارج، وكان في كل ركن من الأركان برج، وفي كل ضلع أربعة أبراج، وهناك بقايا مئذنة داخل سور المسجد يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر وتتكون بانكات رواق القبلة من ١١ عقدا، وفي رواق القبلة ثلاث بلاطات موازية لحائط القبلة، في حين أن كل رواق من الروقة الثلاثة الأخرى يتكون من بلاطتين فقط.

وكانت واجهة القبلة مغطاة بثلاث جملونات، وتدل الكتابة الموجودة في وسط الواجهة الخارجية لرواق القبلة المشرفة على الصحن أن إضافة كانت قد تمت في عهد (نور الدين زنكي) حاكم الموصل سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٥م ، ويجمع المسجد هذا في طرازه بين الفن المعماري العراقي والفن المعماري السوري، إن أكثر القسام المحافظة على شكلها القديم في سور المدينة هي (باب بغداد) والذي شكله العام أشبه ببرج طويل

مستطيسل الشكل وفتحته ثلاثية في وسطه، وتعلو واجهته سلسلة محاريب ثلاثية الفلقة، تحيط بها إطارات ذات عقود متوجة تستند فوق أعمدة صغيرة متصلة بالبناء.

قصر الأخيضر:

يعتبر هذا القصر من أحسن القصور التي بقيت محافظة على هيئتها العامة ولم يصبها إلا شئ بسيط من الخراب، وقد اختلف المؤرخون في تحديد زمن بناء هذا القصر، وقد حدد الأستاذ (كريسويل) ذلك تحديدا دقيقا فقال أنه يرجع إلى حدود سنة ١٠٢ – ١٨٥ هـ وعزا بناءه إلى عيسى بن موسى بن عبد الله العباسي الذي كان حاكما في الكوفة في عهد خلافة المنصور.

يقع قصر الأخيضر بالقرب من وادي الأبيض وعلى بعد ١٢٠ كم، إلى الجنوب الغربي من بغداد، وعلى بعد ٧٠ كم تقريبا شمال غربي الكوفة، هذا القصر حصن شامخ مستطيل التخطيط أبعاده ١٧٥ × ١٩٦ مترا ، تتوسط كل واجهة من واجهاته الأربع بوابة عظيمة، وفي أركانه الأربعة أبراج دائرية، بينهما عشرة أبراج في كل واجهة عدا أبراج المداخل الأربعة.

أما القصر فقد بني ملاصقا للسور من الجهة الشمالية، وهو بشكل مستطيل أبعاده ١١١.٤٠ × ٨١.٨٣ مترا ، وقد روعي في تصميم مدخله التحصين الكافي، وخلف الممر الذي يلي المدخل دهليز مربع الشكل تعلوه قبة، وإلى يمين ويسار الدهليز ممر طويل، وإلى الجنوب

منه يقع البهو الكبير المغطى بقبو كبير عال، وإلى يمين مدخل القصر، الجهة الغربية من البهو الكبير، نجد مسجد القصر، بينما في الجهة الشرقية من البهو مجموعة كبيرة من الغرف بارتفاع ثلاثة طوابق.

ويلي البهو الكبير جنوبا دهليز يجري حول الفناء الأوسط للقصر، أو ما يسمى بساحة الشرف، وكذلك حول مجموعة غرف وقاعة العرش، وتحيط بهذه القاعة عدة غرف وقاعات استقبال، ويوجد حول الدهليز شرقا وغربا أربعة بيوت مستقلة، يحتوي كل منها على غرفة لها فناء مستقل، ويتصل كل بيت بالدهليز في مدخل خاص ويلاحظ في تصميم هذه البيوت الأربعة تشابه كل اثنين منها من حيث النظام والترتيب.

إن هذا القصر قد يلقي بعض الضوء على تصميم القصور العباسية التي تناوبتها عوادي الزمن ولم يبق لها من أثر، فالمعلومات التي وصلتنا عن تلك القصور ليس فيها شرح فني يوضح التخطيط المعماري لها، فهذه المعلومات تبين أن الساحات الوسطية كانت محاور أساسية في التخطيط، ثم الانتقال من فضاء إلى آخر يفصل بينهما عدد من الغرف والأروقة والمماشي والدهاليز.

ولا شك أن الإيوان كان من العناصر الأساسية التي يضمها تكوين البناء، فللإيوان والصالة الرئيسية المقام الأول في البناء نظرا لسعتها وعلوها، ويتوسط الإيوان أحد جوانب الفضاء الرئيسي، ويرتكز سقفه على ثلاثة أضلاع، أما الضلع الرابع فيكون مكشوفا ومن هذا الإيوان يتم الاتصال بالغرف الداخلية بواسطة ممرات وأبواب.

ويعتقد كريسويل أن تصميم قصر المنصور في المدينة المدورة كان أشبه بتصميم دار الإمارة الذي بناه أبو مسلم في مرو، وكان قوام تصميم هذا القصر قاعة وسطية مربعة عليها قبة، وتفتح القاعة على أربعة أواوين كبيرة مغطاة بأقبية نصف أسطوانية مفتوحة على فناء مكشوف تحيط به قاعات وغرف ويقابل كل منها أبواب أو مداخل كبيرة للقصر، وهذا التخطيط ينطبق تمام الانطباق على مخطط قصر الجص في سامراء كما سنرى.

إنشاء المدارس والمعاهد الخيرية في بغداد:

شاع في العصرين العباسيين: الأوسط والأخير، بناء المدارس والمارستانات والربط وغيرها من الأبنية الخيرية.. إن فكرة المدارس كانت تراود الخلفاء العباسيين في زمن مبكر من تاريخ دولتهم ولهذا أنشأوا دور العلم وبيوت الحكمة لترجمة علوم الأقدمين، وقد حظيت بغداد منذ أواسط القرن الخامس الهجري بعدد كبير من المعاهد والمدارس القائمة بذاتها والمستقلة عن الجوامع، وكانت هذه المدارس في ازدياد مستمر حتى سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م

أما الربط فهي من المنشآت الخيرية الاجتماعية أنشأها الخلفاء والأمراء لضيافة العلماء الراحلين من قطر إلى آخر طلبا للعلم، ثم آلت إلى دور يعيش فيها جماعة من المنصرفين للعبادة كالمتصوفين والزهاد المنعزلين عن الحياة، وكان أقدم رباط في بغداد الرباط الذي شيد مقابل جامع المنصور في مدينة السلام، ومن الربط التي ذكرها المؤرخون رباط

الأخلاطية، ورباط زمرد خاتون، ورباط أراجون ورباط البديع الزنجاني، ورباط دار الشط، ورباط الحريم الطاهري، ولم يبق من هذه الربط ما يشير إلى تخطيطها، وقد عفى الزمن على آثارها وفقدنا أي أثر مادي يستدل منه على تصميمها الهندسي وتكوينها المعماري، ويعرف الرباط في بلاد الشام باسم فارسة (خانقاه) و(خانكاه).

والمارستانات هي المستشفيات كما هي معروفة في الوقت الحاضر، وقد ذكر المؤرخون أن الرشيد أنشأ مارستانا في بغداد، كما أنشأ البرامكة مارستانا آخر ولكن أخبارهما لا تخولنا وصفا كافيا لهما، ومن المارستانات التي جاء ذكرها في التواريخ مارستان الأمير بدر المعتضدي أحد مماليك الخليفة المعتضد بالله ومارستان الوزير علي بن عيسى بن الجراح بمحلة الحربية بالجانب الغربي من بغداد، ومارستان السيدة شغب والدة الخليفة المقتدر بالله على شاطئ دجلة الشرقي، وقد زالت أكثر هذه المارستانات بعد زوال أصحابها.

المدرسة المستنصرية

هذه المدرسة في الحقيقة أول جامعة إسلامية كبرى في العالم الإسلامي، وتقع المستنصرية بالجانب الشرقي من بغداد على ضفة نهر دجلة مما يلي دار الخلافة، شرع المستنصر بالله العباسي ببنائها في سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧، وتم افتتاحها سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م، وقد جعل التدريس فيها على المذاهب الأربعة، كما يدرس فيها التفسير وعلوم القرآن والحديث والطب والرياضيات والفلك، وعدت المستنصرية قدوة

لمؤسسي المدارس فتأسست مدارس على شاكلتها وربما على غرارها من حيث هندسة البناء واحتوائها على أربعة أواوين للتدريس ومسجد فيها.

إن أهم الأقسام العلمية في المستنصرية هو مدرسة الفقه ولا يزال القسم الأعظم منها ماثلا حتى اليوم بأواوينه وحجره وغرفه وأروقته وزخارفه البديعة، وكان الإيوان الجنوبي الغربي خاص بالشافعية، والإيوان الجنوبي الشرقي للحنفية، والإيوان الواقع يمنة الداخل إلى المدرسة للحنابلة والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية.

يتكون كل ربع من الأربا ع المنوه عنها من طابقين، ولكا ربع سلمه الخاص به يصعد إلى الطابق العلوي وإلى سطح المدرسة، وكان في الطابق الثاني من كل ربع رواق وحجرات عديدة، والأواوين مزخرفة بزخارف آجرية بديعة يبلغ ارتفاع الإيوانين المتقابلين ارتفاع الطابقتين، وعلى باب المدرسة إيوان كبير مزخرف أيضا، يقع في وسط الضلع الشمالية، ويلاحظ أن إيوان الجامع الأوسط الذي يتوسط الضلع الشمالي من الجامع في الجهة القبلية المطلة على دجلة يقابل إيوان الباب تماما.

وفي بناية خاصة تقع مقابل باب المدرسة الرئيسي كانت مدرسة الطب، وقد زالت هذه المدرسة من الوجود وأصبحت أسواقا، وكانت للمستنصرية ساعة عجيبة نصبت فوق إيوان مدرسة الطب، وتلاصق المستنصرية من الشمال دار القرآن ولم يبق منها إلا الإيوان المزخرف البديع، وقد بني على أسس هذه الدار جامع الآصفية نسبة إلى الوزير التركي آصف الزمان داوود باشا.

المدرسة الشرابية في بغداد (القصر العباسي):

أجمع المؤرخون أن شرف الدين إقبال الشرابي وزير المستنصر بنى ثلاث مدارس الأولى بناها ببغداد وتكامل بناؤها في سنة ٦٢٨هـ، والثانية بناها في واسط، والثالثة بناها في مكة المكرمة، والمدرسة التي بناها في بغداد كانت تسمى بالمدرسة الشرابية أو الإقبالية أو الشرفية، وتقع بين باب المعظم ومحلة الميدان الحالية ونهر دجلة، ومن هنا نستطيع أن نقول أن المدرسة الشرابية يحتمل جدا أن تكون هي البناية المعروفة بالقصر العباسي. ويزيد في رسوخ هذا الاعتقاد – حسب رأي الاستاذ المرحوم ناجي معروف – وجود تشابه كبير بين تصميم هذه البناية وبين مدرستين قائمتين ببغداد هما: المستنصرية، والمرجانية؛ فطراز الأواوين والأروقة والدهاليز والأزاج والردهات الكبرى وبيوت الطلبة وصحن المدرسة والرحاب والمساجد والعقود والأقواس والكوى وطراز التسقيف، وتفاصيل الزخرفة الآجرية في الجدران والسقوف والأبواب مما يؤكد كون المدارس كانت تتبع طرازا خاصا في التخطيط والزخرفة.

في هذه المدرسة إيوان بديع الزخارف الآجرية، مفتوح الواجهة من الجهة الشمالية على صحن المدرسة وارتفاعه بارتفاع الطابقين فيها، ويحيط بالصحن الكبير عدد من الحجرات الصغيرة، يحميها رواق سقفه فيه مقرنصات آجرية بديعة التركيب، ودعامات تحمل أقواسا مدببة، ويقابل الإيوان الكبير مسجد المدرسة، إن الزخارف الآجرية التي تزين هذه البناية

وغيرها من الأبنية العباسية لا يمكن وصفها بالكلمات لدقة صنعها وروعة منظرها وتنوع شكلها، وانسجام تنسيقها، وبراعة تركيبها وترتيبها.

جامع الخلفاء (جامع القصر) في بغداد:

بينّا كيف أنشئ هذا الجامع على أسس المطامير (السجن) الذي بناه المعتضد، وقد هدمه وبنى المكتفي مكانه هذا الجامع سنة **٢٨٩** هـ/ **٩٠١**م، وقد عاش هذا الجامع أكثر من ألف سنة إلا أنه اعتراه من نوائب الزمن ما اعتراه فلم يبق له أثر إلا مئذنته القديمة المعروفة بمنارة سوق الغزل.. بنيت هذه المئذنة بالآجر والجص بشكل أسطواني على قاعدة اثنى عشرية محيطها **٢٠.٦٤** مترا، تقوم عليها شرفة ارتفاعها عن سطح الأرض **٧.٥٥** مترا، وتضم مدخلين للطلوع، وتؤدي هذه المداخل إلى سلمين يدوران في باطن بدن المئذنة الأسطواني باتجاهين متعاكسين أحدهما لا يرى الصاعد عليه النازل من الآخر، وينتهي السلمان من الأعلى بمخرجين في شرفة أو حوض المئذنة العالي المزين من أسفله بمقرنصات أو دلايات من الآجر المزخرف، ومن وسط هذه الشرفة ينحسر البدن الأسطواني، وينتهي بقمة المئذنة، وبذلك يصبح ارتفاع المئذنة عن سطح الأرض **٣٣** مترا تقريبا

مرقد السيدة زمرد خاتون:

كانت السيدة زمرد خاتون بنت عبد الله التركي زوجة الخليفة المستضئ بأمر الله ووالده الناصر لدين الله توفيت سنة **٥٩٩** هـ/ **١٢٠١** م، ويقع المرقد في جانب الكرخ من بغداد، وتعرف القبة التي تعلو هذا المرقد بـ (الميل) لأنها تشبه الميل، ذات رأس مدبب كالحربة، والقبة مخروطية

الشكل في أعلاها من الخارج نوع من القرنصة البنائية الجميلة، والتغصين الجانبي مما يشبه جمبذة الزهرة قبل التفتح، إن هذه القبة وأمثالها من القبب المخروطية أو الهرمية تكاد تكون خاصة بأضرحة الأئمة والكبراء منذ زمن العباسيين، ومن القبب المعروفة على غرارها قبة الحسن البصري في البصرة، وقبة أمام الدور شمالي سمراء، وقبة الشيخ عمر السهروردي في بغداد في جانب الرصافة، وقبة يحيى بن القاسم بالموصل.

وقد قامت السيدة زمرد خاتون بإنشاء جامع الحظائر (جامع الخفافين) في بغداد، ولم يبق من الجامع القديم غير منارته القائمة في الجانب الشرقي من بغداد على ساحل دجلة، وعلى أقدم المنائر في بغداد.

سامراء – عاصمة العباسيين الثانية:

ليس في العراق الغني بآثاره الفريدة ما يثير في النفس انفعالات عميقة من سرور وألم وإعجاب وابتئاس كتلك التي تثيرها أطلال سامراء (سُر من رأى)، لقد أنفق العباسيون الأموال بلا حساب لتشييدها فجعلوها بهجة للناظرين، ولكن سامراء ما فاجأت العالم بظهورها إلا لتفاجئه بكسوفها الدائم بعد أن هجرها الخليفة المعتمد على الله سنة ٣٧٩ هـ/ ٨٩٢م ، وعاد إلى بغداد عاصمة أجداده.

تقع سامراء على مسافة ١٣٠ كم شمالي بغداد، بناها المعتصم سنة ٢٢٢ هـ/ ٨٣٦ م، بعد أن أقلقته الإقامة في بغداد لأسباب سياسية واجتماعية، فانتقل إلى سامراء مع رجاله وجيشه ثم تلاه سبعة من الخلفاء.

وقد مر على تاريخ إنشائها مرحلتان: المرحلة الأولى دور تأسيسها وتنظيمها وقيام المعتصم ثم ابنه الواثق ببعض الأعمال العمرانية فقط، والمرحلة الثانية جرى فيها التوسعات العظيمة والإضافات الكثيرة في زمن خلافة المتوكل بن المعتصم. ويدل تخطيط المدينة على براعة فائقة في هندسة المدن وتخطيطها، وفيه كثير من الابتكارات، ويتجلى ذلك في تنظيم الشوارع والمساكن، وتنسيق الأبنية العامة والأسواق والمتاجر والمساجد والحدائق وغيرها.

المسجد الجامع في سامراء:

يعد هذا المسجد الجامع أكبر المساجد في العالم الإسلامي، حيث تبلغ مساحته ٤٥٥٠٠ مترا مربعا شيده الخليفة المعتصم بالله، وعندما ضاقت سعته بالمصلين هدمه المتوكل وشيد محله المسجد الجامع الكبير القائم الآن سنة ٢٣٨ هـ/ ٨٥٢ م، ويعرف هذا المسجد بمئذنته الملوية الشامخة والتي ترى من فراسخ، لم يبق من هذا المسجد سوى جداره الخارجي الذي يبلغ طوله ٢٤٠ مترا وعرضه ١٥٨ مترا، ويبلغ ارتفاع الجدار زهاء ١٠.٥٠ أمتار، وسمكه متران، وهي مبنية بالآجر والجص ودعمت من الخارج بأبراج نصف دائرية عددها ٤٠ برجاً وقطر كل برج ٤.٥٠ مترا، والمسافة بين كل برج وآخر ١٥ مترا، ولهذا المسجد ٢١ باباً كبيراً وبابان صغيران.

وتقع مئذنة المسجد على بعد ٣٥ مترا من وسط الحائط الشمالي من المسجد وعلى محوره الأوسط تماماً، وطول ضلع قاعدتها المربعة ٣٢

مترا وارتفاع هذه القاعدة ٣ أمتار تقريبا، وتزين هذه القاعدة محاريب مستطيلة تعلوها طواقي دائرية، وتعلو هذه القاعدة القسم الحلزوني من المئذنة، وهي ذات مرقى سعته متران ونصف، يبدأ من مركز أو وسط الجانب الجنوبي ويدور في اتجاه معاكس لعقرب الساعة حتى تتم دورات خمس، وكلما صعد الإنسان إلى أعلى زاد انحدار المرتقي شدة، وفي نهايته نجد قمة المئذنة وهي ترتفع عن القاعدة بمقدار ٥٠ مترا تماماً، وفي هذه القمة ثمانية ثقوب يعتقد أنها أثر لثمانية أعمدة خشبية كانت مثبتة فيها لتحمل سقيفة على هذا الموضع من قمة المئذنة.

المتوكلية وجامع أبي دلف:

بنى المتوكل مدينة المتوكلية الجعفرية إلى الجهة الشمالية من مدينة سامراء، وهى في الحقيقة امتداد لتوسيعها، وتسمى أيضا المتوكلية، يحيط بهذه المدينة سور ضخم يبلغ طوله حوالي أربعة كيلو مترات ونصف الكيلومتر، وقد نقل المتوكل جميع الدواوين إلى هذه المدينة فاتسع البناء فيها، وبنى مسجدا جامعا، ثم مد الشارع الأعظم في سامراء مقدار ١٥ كيلو مترا إلى قصوره في الشمال، وأصبح عرض الشارع مائتي ذراع.

أما جامع أبي دلف فإنه يقع في جنوب منطقة دار الخلافة في المتوكلية، وهذا الجامع بهيئته العامة أشبه بالمسجد الجامع الكبير في سامراء، فقد بني بشكل مستطيل أيضاً، أبعاده ٢١٦ × ١٣٨ مترا، يحيط بصحنه المكشوف أروقة من جوانبه الأربعة ففي القسم القبلي ١٧ رواقا، ومثل هذا العدد في الضلع الشمالي، أما الضلعان الشرقي والغربي

تعدد الأروقة في كل منهما ١٩ رواقا، وللجامع ١٨ بابا، وهي موزعة على حسب الترتيب التالي: ٣ في الضلع القبلي، و٣ في الضلع الشمالي، و٦ في كل من الضلعين الشرقي والغربي.

أما مئذنة الجامع فهي ملوية أيضا ولكنها أصغر حجما من ملوية المسجد الجامع في سامراء، ويقع في منتصف المحور المار من شمال الجامع إلى جنوبه، وطول كل ضلع من أضلاع قاعدتها المربعة ١١.٣٠ مترا، وفوق هذه القاعدة يبدأ القسم الحلزوني ويدور ثلاث دورات حتى يبلغ الارتفاع من القمة إلى القاعدة ١٦ مترا.

دار العامة أو بيت الخليفة في سامراء:

بنى الخلفاء العباسيون الذين سكنوا سامراء عدة قصور فيها، وتعتبر (دار العامة) من أهم العمارات التي شيدها المعتصم في عاصمته الجديدة هذه، أن تخطيط هذه الدار وما فيها من الظواهر الفنية والزخارف والفسيفساء تدل على دلالة ناطقة على أهمية هذا البناء في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، ولو قدر لها أن تبقى محافظة على أبنيتها وزخرفتها لأصبحت اليوم تضاهي جميع قصور العرب في العالم الإسلامي، إلا أن الخراب والدمار قد أصابها كما أصاب غيرها من أبنية سامراء الجميلة بعد ترك الخلفاء لهم ورجوعهم إلى بغداد، وزاد في خرابها استيلاء العمال عليها وهدمها لاستعمال آجرها في بناء الدور في سامراء الحديثة.

تبلغ مساحة هذا القصر العظيم نحو نصف مليون مترا مربعا، وتمتد مباني القصر فوق هضبة عالية، وواجهة القصر تمتد على طول ضفة دجلة

اليسرى إلى مسافة ٧٠٠ مترا تقريبا، والمسافة بين هذه الواجهة ومنتهى بنايتها الخلفية من الجهة الشرقية تقرب من ٨٠٠ مترا، إن القسم الوحيد الذي ظل قائما من دار الخلافة هذه ولم يصبه إلا الشئ القليل من التلف هو باب العامة، وهذا الباب هو مدخل القصر الذي يشرف على النهر والحدائق الممتدة أمامه في السهل الواسع، ويتألف الباب من واجهة ذات ثلاث عقود يقع خلفها ثلاث حجرات، فالحجرة الوسطى هي الإيوان الكبير وهو مفتوح بكامل عرضه ومطل على النهر، والإيوانان الجانبيان هما في الحقيقة بمنزلة مدخلين لحجرتين خلفيتين يمكن اعتبارهما مخصصين للحرس والأتباع.

ويقع خلف المدخل الرئيسي للقصر ست قاعات يرجح أنها قاعات انتظار، أما الجزء الخاص بالحريم فيدخل إليه من الناحية الجنوبية للباب الكبير التي يتصل بها رواقان طويلان، وتتلو القاعات والأروقة ساحة مربعة فيها نافورة يحيط بها من كل جانب ثلاث حجرات ربما كانت لجلوس الوزراء، وإلى الشمال من الساحة المربعة نجد حجرات الخليفة، وهي تقع حول ثلاث رحبات، ويطل الحمام الكبير على الرحبة مباشرة، وإذا سرنا قدما فإننا نمر في قاعة أمامية ثم رحبة مضلعة.

وفي الناحية الشرقية يمكن مشاهدة واجهة قاعة العرش بأبوابها الثلاثة، وتوصل الدهاليز والممرات السفلى إلى الحجرات الخلفية وقسم الحريم، وتتكون قاعة العرش الكبيرة من قاعة وسطية تحيط بها أربع قاعات على شكل T، ويرجح أن تكون القاعة الوسطى مغطاة بقبة عالية، وتقع

في واجهة قاعة العرش حجرة مربعة يدور حولها رواق طويل، ولهذه القاعة أربعة أبواب وفي وسطها حوض تحف به أعمدة رخامية في أركانه الأربعة.

وتقع أمام القاعة الشرقية قاعة كبيرة أخرى مستطيلة تفتح بواسطة خمسة أبواب على رحبة كبيرة مكشوفة طولها ٣٥٠ مترا وعرضها ١٨٠ مترا نقسمها قناة إلى قسمين: الغربي منها مرصوف ومحلى بنافورة، والشرقي غير مرصوف وبه بعض قنوات ومجاري مياه صغيرة.

وإذا سرنا من الرحبة الكبيرة باتجاه الشرق فإننا نصل إلى سرداب يقع على المحور الرئيسي للقصر ويسميه العامة (هاوية السباع)، ومدخل هذا السرداب غرفة مربعة، والسرداب عبارة عن فجوة منقورة في الصخر كل ضلع من أضلاعها ٢١ مترا، وعمق السرداب ٨ أمتار، وفي كل جدار من جدرانها ثلاث مغارات تتصل ببعضها بأروقة، وفي وسط السرداب فسقية أو حوض للماء، ويحيط بالسرداب في الخارج غرف عديدة.

وفي الجهة الشرقية من القصر ملعب كبير له سور طويل طوله ٥٣٠ مترا، وعرضه ٦٥ مترا، ويقع هذا الملعب على استقامة محور القصر، ويمكن اعتبار هذه الساحة ملعبا للصولجان، وفي الركن الشمالي الشرقي للقصر حفرة محاطة ببناية مربعة كثيرة التقسيمات طولها ١٨٠ مترا، في وسطها بركة يبلغ قطرها ٨٠ مترا، أما بيت المال فيقع إلى الشرق من دار العامة ويتكون من مجموعات متنوعة من المباني ذات جدران قوية، ويذكر المؤرخون أنه كان في هذا القصر سجن ملكي يسجن فيه السياسيون والأمراء والقواد.

لقد أثبت المهندس المعماري العربي الذي خطط هذا البناء الضخم وأشرف على تنفيذه، وأن زخرفته وزينته على مقدرة فائقة في التصميم وطريقة توزيع أقسام القصر المختلفة من مدخل ملكي فخم، وممرات وقاعات واسعة وغرف وحمامات وساحات وسراديب وحلبات للسباق، إن من ينظر إلى باب العامة يرى النبل والفخامة لا تزال ظاهرة فيه، فهو في شموخه مثال للقوة والكبرياء.

قصر العاشق أو المعشوق:

يقع هذا القصر في الجانب الغربي من نهر دجلة على بعد ١٥ كيلو مترا شمال مدينة سامراء الحالية، وهو قصر فخم قائم على الضفة اليمنى من نهر الإسحاقي القديم، بني هذا القصر في أواخر أيام حكم المعتمد في سامراء، ويتكون القصر من طابقين: الأول وهو مستطيل طوله ١٣١ مترا وعرضه ٩٦ مترا، حوط بساحة مسورة، ويشاهد في هذه الساحة بين القصر وبين السور الخارجي عدة مبان فرعية، ويحيط بالقصر خندق واسع، وللقصر مسناة في بعض جهاته، والبناء كله متين مميز بأبراج ضخمة من جوانبه المختلفة، وفي الجهة الشمالية من القصر بقايا جدران أمكن الاهتداء بها على مرافق القصر، فالطابق الأسفل الذي تحت هذه الجهة أقرب أن يكون سردابا وفيه أواوين على غرار الأواوين المألوفة في العمائر الإسلامية، وفي الجهة الشمالية ممر يؤدي إلى مرافق القصر العليا، ويحتمل أن يكون هذا الممر مدخلا للقصر من جهته الشمالية.

لقد أشار إلى هذا القصر اليعقوبي عندما وصف مدينة سامراء فقال "إن المعتمد لما ارتقى عرش الخلافة أقام بسر من رأى في الجوسق وقصور الخلفاء، ثم انتقل إلى الجانب الشرقي (يقصد الغربي) بسر من رأى فبنى قصرا موصوفا بالحسن سماع (المعشوق) فنزله وأقام به حتى اضطربت الأحوال فانتقل إلى بغداد".

قبة الصليبية:

يقع هذا البناء فوق هضبة تبعد ميلا واحدا تقريبا جنوبي قصر العاشق، ويتكون البناء من مثمن خارجي داخله مثمن آخر متكامل الناء يفصلهما رواق، وللمثمن الداخلي أربعة مداخل وفي الوسط قاعة مربعة عليها قبة.

ويرى (هرسفلد) أنه من المحتمل جدا أن تكون قبة الصليبية موضع ضريح المنتصر، وقد عثر على ثلاثة قبور في القاعة المربعة، وكان لتخطيط هذا الضريح أثره بعد ذلك في تصميم الأضرحة التي بنيت في الشرق الأوسط.

مصر في العهد الطولوني

كان طولون من غلمان الأتراك، أرسله حاكم بخارى إلى الخليفة المأمون سنة ٢٠١ هـ/ ٨١٦ م، وقد ولد ابنه أحمد سنة ٢٢١ هـ ٨٣٥ م، ودرس وتعلم في قصر الخليفة، ونال حظوة كبيرة من أمير المؤمنين،

وكان ذكيا درس الفقه والتشريع وأصبح من القواد اللامعين في جيش المتوكل، وقد أصبح الأتراك أصحاب السطوة يعينون من شاءوا ومن يعتمدون عليه ولاة على مختلف الأقطار فاختاروا ابن طولون لولاية مصر، فذهب إليها ودخل الفسطاط في سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨ م، وهنا ظهرت أطماعه في تأسيس مملكة لها شخصيتها ومكانتها بين الممالك الإسلامية المختلفة.

بدأ ابن طولون أولاً في تخطيط حاضرة جديدة تماثل سامراء قصبة الخلافة العباسية في عهده، فكان ما أراد وأسماها القطائع ذلك لأنه أقطعها قطعا بين حاشيته ورجال دولته، وسيد فيها قصرا ومساحة أو ميدانا للفروسية، كما بنى جامعا سنة ٣٦٤ هـ/ ٨٧٧ م، وكان الانتهاء منه سنة ٤٦٦ هـ/ ٨٧٩م، ومسار هذا الجامع درة فريدة بين المساجد، ويعتقد المؤرخون أن ابن طولون قد تأثر بطراز بناء المسجد الجامع الكبير في سامراء.

يشغل هذا الجامع أرضا مستطيلة أبعادها من الشرق إلى الغرب ١٢٢ مترا، ومن الشمال إلى الجنوب ١٤٠ مترا، فتكون المساحة كلها ٢٦٣١٨ مترا مربعا، وفي الحرم خمسة أروقة موازية لجدار القبلة، وتنقسم هذه الأروقة إلى ١٧ بلاطة، وترتفع قبة صغيرة فوق نهاية البلاطة المؤدية إلى المحراب، وللجامع سبعة أبواب في كل من الضلعين الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي، وخمسة أبواب في الضلع الشمالي الغربي، وباب واحد في ضلع القبلة، وللدخول إلى الجامع لا بد من المرور من الزيادة التي تحيط بالجامع من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية.

وصحن الجامع مربع الشكل به أروقة من جهاته الأربع، وفي وسط الصحن نافورة عليها قبة من الخشب، ومن الأمور التي تجعل الجامع الطولوني أقرب في مظهره بمساجد سامراء مئذنته الشهيرة بالملوية وإن اختلفنا بالمظهر والبنيان، تقع هذه المئذنة في الزيادة الشمالية وتلتصق بجدارها، وترتفع بأربع دورات فوق قاعدة حجرية مربعة، (١٢.٧٥ × ١٣.٧٥ مترا) وارتفاعها ٣١.٣٥ مترا عن سطح الأرض، وفوق ذلك طابقان بشكل مثمن وبذلك يصبح ارتفاع المئذنة الكامل ٤٠.٤٤ مترا، ويتصل سطح الجامع بالمئذنة بواسطة جسر محمول على عقدين بشكل حدوة الفرس، وقد أعاد بناء المئذنة السلطان (لاجين) سنة ١٣٩٦ م على مثال ما كانت عليه من قبل، وأضاف إليها مبخرة مضلعة في قمتها على أسلوب مباخر المآذن في العصر المملوكي.

تتنوع زخارف الجامع الطولوني تنوعًا كبيراً، وتتكون هذه الزخارف الجصية من أشكال لآلئ وخطوط لولبية وبراعم زهرية، وهناك مجموعات من أشكال التوريق تتكون من وريقات مدببة الرأس تجعل لهذا الجامع أهمية خاصة في تاريخ الزخرفة المعمارية الإسلامية، وتميزه عن غيره بجمال زخرفته ونقوشه.

مصر في العهد الفاطمي:

أصبحت تونس بعد أن تخلى عنها أمراؤها الأغالبة مقراً للخلافة الفاطمية التي أسسها عبيد الله بن المهدي، وقد أنشأ المهدي مدينة المهدية، وبنى فيها مسجدا كبيرا وقصرا فخما، ودام حكمه من سنة ٩٠٨ إلى سنة ٩٣٤، وقد هجرت المهدية عام ٩٤٧ م، وانتقل المنصور بن القائم إلى المنصورة التي تقع على أبواب القيروان، أما الخليفة الفاطمي الرابع فكان المعز لدين الله، وكان من وزرائه رجل يدعى جوهر الروماني، وقد أنيطت به قيادة جيوش الفاطميين، فانتهز هذا سوء الإدارة في مصر فتقدم في سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩ م، بجيشه إلى مصر واستطاع بعد معارك بسيطة من الدخول إلى مدينة الفسطاط وأصبحت مصر بعدها خاضعة لحكم الفاطميين، وشرع جوهر في بناء مدينة جديدة لتكون معسكرا لجنده سماها (القاهرة)، وأصبحت بعد ذلك عاصمة للدولة الفاطمية.

خطت القاهرة بحيث يتوسطها قصر الخليفة، فكان هذا القصر مركزها ومحورها، وأصبح مقر الخليفة ومقام حاشيته وعسكره، وقد أراد

المعز أن يجعل القاهرة مدينة الخاصة ويبقي الفسطاط مدينة للعامة، وكانت مساحة القاهرة ٤٠٠ فدانا يحيط بها سور ضخم له ثمان بوابات هي:

باب الفتوح، وباب النصر في الشمال – باب البرقية، وباب القراطين في الشرق – باب الفرج، وباب سعادة في الغرب – بابا زويلة في الجنوب

وكان يصل بين بوابة الفتوح وبوابة زويلة طريق رئيسي أطلق عليه ما بين القصرين، وهو يقسم القاهرة إلى قسمين متساويين تقريبا، وقد قسمت القاهرة إلى حارات أو خطط كل خطة منسوبة إلى قوم أو قبائل كانوا في صحبة جوهر الصقلي، بنى الخلفاء الفاطميين قصورا ومنتزهات كثيرة داخل المدينة وخارجها منها قصر الجوهرة، ومنظرة الأزهر، ومنظرة اللؤلؤة، ومنظرة التاج، ومنظرة الأندلس، وقصر الورد، وهذه المناظر شبيهة بمجالس استراحة يجلس فيها الخلفاء للراحة واستعراض الجيوش.

لقد اندثرت هذه القصور ولم يبق لها أثر ولكن أحد كتاب الفرنج (وليم الصورى) رسم صورة صادقة لقصر الخلافة، فذكر أن هذه القصور كانت فخمة، وبها أروقة مرصوفة رصفا ثمينا ومسقوفة بزخارف ذهبية بديعة، تحيط بها بوائك أعمدة قدت من رخام فاخر متعدد الألوان، وإن المرء كان يقف مدهوشاً عندما يسير في أنحاء القصر ، وكان يحار عجبًا حيثما جال نظره في أرجائه، وكان في القصر نافورة يصل إليها الماء في أنابيب من الذهب والفضة، وكان السفراء يتنقلون في القصور من ممر إلى ممر، ومن قاعة إلى قاعة، ومن فناء إلى فناء، ومن حديقة إلى حديقة، وهم

يشاهدون في كل خطوة يخطونها أكثر مما شاهدوا عجبا وأبدع جمالاً حتى يصلوا إلى القصر الكبير (قصر الخلافة)، وقد فاق ما رأوا في هذا القصر كل ما شاهدوه من قبل.

جامع الأزهر:

أسوة بجامع عمرو بن العاص في الفسطاط، وجامع ابن طولون في القطائع، اختط جوهر الصقلي في زمن الخليفة المعز جامع الأزهر في القاهرة، وفرغ من بنائه في سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢ م.. إن جامع الأزهر الحالي يختلف عن جامع جوهر كل الاختلاف، ولكن لا تزال ثمة بقية من الجامع القديم باقية، فقد قام أربعة من الخلفاء الفاطميين بإصلاحات كثيرة في هذا الجامع، وشيد السلطان قايتباي والسلطان الغوري المئذنتين اللتين لا تزالا قائمتين في الجانب الغربي والزاوية الجنوبية الغربية من صحن الجامع، وكانت مساحة الجامع عند بنائه نصف مساحته الحالية التي تبلغ الآن ١٢٠٠٠ مترا مربعا، وقد أصبح بشكل مستطيل طول ضلعه ٣٠٠ قدما وعرض المسجد ٣٥٠ قدمًا.

كان الجامع القديم مكونا من أربعة أواوين يتوسطها صحن الجامع، فالإيوان الشرقي، وهو إيوان القبلة يتألف من خمسة أروقة أو بائكات وبكل رواق ١٨ عقداً مدببا على أعمدة رخامية قديمة، أما الإيوان الجنوبي والشمالي فيتألف كل منهما من ثلاثة أروقة، والإيوان الغربي من رواق واحد يدور حول الصحن وكان الباب يتوسط هذا الرواق، ويمتاز جامع الأزهر بمجازه الذي يخترق الصحن إلى المحراب والذي تنتهي عنده العقود

من كلا الجانبين، وينتهي المجاز بمحراب الجامع الذي تعلوه قبة، وكان في ركني إيوان القبلة قبتان، إحداهما في الركن الأيمن عن يمين المحراب، تقابلها قبة أخرى في الركن الأيسر، وقد تحول هذا الجامع إلى جامعة كبرى في عهد الخليفة العزيز الذي بنى بجواره دارا لجماعة من الفقهاء ونقل إليه نصف ما كان بدار الحكمة من كتب، وزاد في بنائه، هذا وقد بنى الفاطميون عدة جوامع في القاهرة أهمها:

جامع الحاكم بأمر الله:

بدأ العمل في إنشاء هذا الجامع على زمن العزيز بالله سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩ م، ولكنه توفي قبل إتمامه فأكمله ابنه الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م فصار يعرف بجامع الحاكم، ويشغل هذا الجامع أرضا خارج جدار السور الشمالي لمدينة القاهرة، وأرض الجامع مستطيلة طولها ١٢٠.٥ مترا وعرضها ١١٣ مترا، وفي نهايتي واجهته الشمالية الغربية توجد مئذنتان تحيط بهما قاعدتان عظيمتان هرميتا الشكل، وتتكون كل قاعدة من مكعبين يعلو أحدهما الآخر، ويبلغ ارتفاع الأخير ارتفاع أسوار الجامع، وتبرز من كل من المكعبين العلويين مئذنة مثمنة الشكل ويحيط بصحن الجامع أواوين، ففي الإيوان الجنوبي الشرقي (إيوان القبلة) ١٧ عقدا لخمسة أروقة، وهذه العقود محمولة على أكتاف تشبه الجامع الطولوني.

وبعد جامع الحاكم آخر جامع بني على طريقة تخطيط المساجد في الشرق بشكل مستطيل، وسقفه مسطح، والقباب قائمة فوق المحراب،

والأروقة المحيطة بصحن مكشوف، إذ بعد القرن العاشر بدأ التحول من هذا النوع من التخطيط إلى نوع جديد فيه التأثير الغربي واضح.

الدولة الأيوبية في مصر:

ضعفت الدولة الفاطمية في أواخر أيامها ودب الوهن فيها أيام الخليفة المستنصر ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م، وكان العاضد آخر خلفائها، فحاول السلاجقة في الشام، والصليبيون في فلسطين غزو مصر مرات عديدة، وأخيراً تمكن (نور الدين) السلجوقي سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٨ م، من إيصال جيش من الشام تحت قيادة (شيركوه) وابن أخيه (صلاح الدين يوسف بن أيوب) إلى مصر، وأصبح شيركوه وزيرا للعاضد، وبعد سنة خلفه صلاح الدين.

وعندما توفي العاضد تولى الحكم صلاح الدين، وأسس الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م، فكانت الخمس والعشرون سنة التي تولى الحكم فيها حلقة ممتدة من الحروب والفتوحات اتسمت فيها حدود الدولة حتى شملت اليمن والشام وشمال الجزيرة، وقد خلَّد صلاح الدين الأيوبي اسمه في التاريخ بعد أن وجه ضربة قاصمة للصليبيين في موقعة حطين سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٧ م، وأنزل بهم هزيمة منكرة، وانتزع منهم بيت المقدس، ثم أجلاهم عن بقية مدن الشام وفلسطين.

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال توفي صلاح الدين سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٩٣ م، ودفن في دمشق، وهو يعتبر واضع أساس مدينة القاهرة الحالية إذ قام بدمجها مع العواصم التي سبقتها: الفسطاط، والعسكر،

والقطائع، وأزال ما بينهم من أبواب وعوائق وملأ الفضاء الذي كان قائما بينها بالعمران، أمر صلاح الدين ببناء سور يحيط بالقاهرة وقلعة الجبل.

لم يتمكن صلاح الدين أن يرى تتمة الأعمال التي أمر بها، ولكن (العادل) وبعده (الكامل) واظبا على تعهد هذه الأعمال، وأتما جزءا كبيراً من مشاريعه، وقد صحب قيام الدولة الأيوبية نشاط معماري كبير في مصر وبلاد الشام، فقد أقيم من العمائر المهمة، من قلاع وحصون وأسوار وجسور ومدارس ومستشفيات وقصور، العدد كبير، ويذكر المؤرخون أن الأمراء الأيوبيين أنشأوا في دمشق وحدها خمسين مدرسة، وفي مصر عشرين مدرسة، وهذا مثل واحد من نشاطهم المعماري.

بناء القلعة:

إن من اكثر العمائر الأيوبية شهرة، (القلعة) التي بدأ صلاح الدين في بنائها سنة ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م، واستقرت معالمها في عهد (الملك الكامل)، وتنقسم هذه القلعة إلى قسمين واضحين: الأول القلعة وهو القسم الجنوبي الغربي من هذا الحصن، وكانت تحوي القصور والدور والخزانات السلطانية، والثاني وهو القسم الشمالي الشرقي، وكان يسمى (قلعة الجبل)، وكانت تضم معسكرات الجنود ومعداتهم، والقلعة في شكلها العام مدينة عظيمة تحيط بها أسوار وأبراج ضخمة من جميع الجهات، ويصل ما بين القسمين باب عام وباب سري.

وينحصر القسم الشمالي الشرقي في مستطيل غير منتظم الأضلاع، طوله من الشرق إلى الغرب ٥٦٠ مترا، وعرضه من الشمال

إلى الجنوب ٣١٧ مترا، ومحيطه حوالي ألفي مترا، ويمتد السور المشترك بينه وبين القسم الجنوبي الغربي بمقدار ١٥٠ مترا تتوسطه بوابة كبيرة (برج القلعة) يحف بها برجان عظيمان.

أما القسم الجنوبي الغربي فهو أصغر قليلا من القسم الأول، وشكله غير منتظم وتبلغ أقصى المسافة من الشمال إلى الجنوب ٥١٠ أمتار، وكان لقلعة الجبل بابان رئيسيان هما باب المدرج، ويؤدي إلى الدور السلطانية والمدينة، وباب القرافة ويؤدي إلى الجبل، إن من أعجب ما تم من الأعمال الهندسية في القلعة بئر يستقي منها الجيش وسكان القلعة إذا ما منع عنهم الماء عند حصارها، وهذه البئر حفرت في الصخرة على عمق ٩٠ مترا تقريبا من مستوى القلعة، ويتكون البئر من طابقين لكل منهما ساقية ترتفع المياه فيها بواسطة الدولاب الذي خصص له منحدر لتسهيل النزول والصعود، وقد فتحت بجانبه فتحات لإيصال النور إلى هذا الممر..

مشهد الإمام الشافعي:

أنشأ السلطان الكامل في سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١١ م، ضريحا عظيماً للإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ، وأقام فوق الضريح قبة ضمت قبر الشافعي وبعض قبور أفراد الأسرة الأيوبية، وتمتاز هذه القبة بما فيها من نقوش وزخارف، وأجمل ما في الضريح التابوت الخشبي المنقوش نقشًا غاية في الإتقان ومكتوب عليه آيات قرآنية وترجمة حياة الشافعي واسم الصانع الذي صنعه، وذلك بالخط الكوفي والنسخي.

ويشغل الضريح أرضا مربعة طول كل ضلع من أضلاعه ١٥ مترا، وتحيط به أربعة جدران سميكة ترتفع إلى ما يقرب من ٢٠ مترا فوق سطح الأرض، وحفرت في جدار القبلة ثلاثة محاريب، وفتح باب في كل من الجدارين الشمالي والشرقي، وترتفع القبة ٢٧ مترا فوق أرضية الضريح، وهي من طبقتين: طبقة داخلية خشبية كسيت بطبقات من الزخارف، وطبقة خارجية من الرصاص، وزينت الواجهة الخارجية للضريح بكتابات وزخارف متنوعة مستمدة من الأسلوب المغربي الأندلسي.

المدارس الأيوبية:

لقد اندثرت المدارس الأيوبية، ولم يبق منها في القاهرة غير أطلال مدرستين إحداهما (المدرسة الكاملية) التي أنشأها السلطان الملك الكامل سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٥م، والثانية (المدرسة الصالحية) وهي المدرسة التي بناها الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل سنة ١٢٤٢ م، ورتب فيها دروسا للمذاهب الأربعة.

إن الجزء الباقي من المدرسة الكاملية جزء من قاعة مستطيلة (١٠.٥ × ٩.٥) مترا، وهي مسقوفة بقبوة مدببة مبنية بالآجر، ويعتقد أن هذه القاعة كانت تقابل بيتًا للصلاة يمتد بينهما صحن المدرسة، وهناك غرف مفتوحة على جانبي الصحن مكونة من طابقين، أما الطابق الأول رواق يطل على كل من جانبي الصحن.

أما المدرسة الصالحية فقد اندثرت في جملتها وما بقي منها يقتصر على قاعة المدرسة المجاورة لقبة الملك الصالح وتسمى أيضا (إيوان الفقهاء

المالكية)، كما بقي جزء من القاعة القبلية، أما بوابة المدرسة وواجهتها الشمالية ومئذنتها فما زالت قائمة.

ويتكون القسم الشرقي من المدرسة من بيت الصلاة وهو بشكل إيوان وفي جدار القبلة ثلاثة محاريب مجوفة، ويطل هذا الإيوان على صحن مستطيل يحف به من كل من جانبيه الشرقي والغربي رواق يطل عليه بائكة من ثمانية عقود ترتكز على تسعة أعمدة وبوابة المدرسة عظيمة البناء، يحف بها طاقات صماء معقودة بعقود صماء يعلوها شكل محراب مسطح تتوجه محارة مضلعة، ترتفع فوق البوابة مئذنة عظيمة ارتفاعها **٣٢** مترا، فيها ثلاثة طوابق تنتهي بقبة مضلعة.

الدولة النورية:

تمتعت سورية على الرغم من الحروب الأهلية والدينية في عهدي السلطان نور الدين وصلاح الدين الأيوبي بأزهى حلقة من تاريخها الإسلامي باستثناء العصر الأموي، ولا تزال إلى اليوم في دمشق مخلفات العمارات والمدارس التي أنشأها أبناء هاتين الأسرتين.

لم يكتف نور الدين بترميم أسوار المدينة بما فيها من أبراج وأبواب وبناء دور للحكومة بل أسس في دمشق أقدم مدرسة مختصة بعلم الحديث، وأنشأ (البيمارستان النوري) ثاني مستشفيات دمشق بعد المستشفى الذي بناه الوليد بن عبد الملك، وقد أصبح من بعد داراً لمدرسة الطب ولا يزال قائما إلى اليوم. وقد أسس نور الدين مدارس في حلب وحمص وحماة

وبعلبك، وأجرى ترميمات في قلعة حلب التي لا تزال قائمة، وبعد وفاته بنى ضريحا له في المدرسة النورية بدمشق ولا يزال موضع احترام الناس.

قلعة حلب:

تقع هذه المنطقة في وسط مدينة حلب تقريبا، وهي بشكل إهليلجي ذات مدخل في الجهة الجنوبية الغربية وقطرا استدارتها ٣٠٠ و٢٠٠ متر تقريباً، وعرض الخندق الذي يحيط بها ١٠٠ متر، ويرجع البعض تاريخ هذه القلعة إلى أزمنة ما قبل التاريخ، وذلك لأنها مكونة من طبقات عديدة لمدنيات متعددة جاءت الواحدة بعد الأخرى حتى انتهت بآثار العرب أعلاها، ويعد بناء القلعة من أعظم ما شيده الميلمون من الناحية المعمارية العسكرية.

يتألف مدخل القلعة من برج حصين ثم جسر فوق الخندق يمكن فتح جزء منه لمنع مرور الأعداء إذا اجتازوا البرج الأول، وبعد هذا الجسر نرى باب القلعة الحديدي الأول الذي يقع في الجهة اليمنى من الواجهة، وسلط فوقه المزاعر والفتحات السفلى التي يصب منها السائل الساخن على الأعداء عند اقترابهم من الباب، وبعد الدخول من هذا يوجد باب آخر عليه تمثالان لأسدين أحدهما ضاحك والآخر باك، وفي القلعة سجن رهيب حفرت دهاليزه في الجبل بعمق كبير لا يدخله النور مطلقا.

وفوق التل داخل القلعة جامعان قديمان كان أحدهما في الأصل كنيسة حوّل برجها إلى مئذنة، وفوق المدخل الكبير للقلعة قاعة العرش التي شيدها المماليك، وخلفها آثار قصورهم لا تزال باقية.

دولة المماليك في مصر

دولة المماليك البحرية:

أكثر الملك الصالح أيوب (الملك الصالح)، سابع ملوك الدولة الأيوبية، شراء المماليك وجعل منهم خاصة بطانته وأمراء دولته،

وأنشأ لهم في (جزيرة الروضة) قلعة قرب مقياس النيل عرفت (قلعة الروضة)، وبنى فيها الدور والقصور والأبراج وجامعًا، ثم اتخذها دار ملك، وسكن فيها بأهله وحرمه، وأسكن فيها مماليكه، وقد عرفوا بالمماليك البحرية لسكناهم في هذه الجزيرة الواقعة في بحر النيل، وقد دمرت هذه القلعة ولم يبق لها أثر اليوم.

توفي الملك الصالح بالمنصورة وبويع ابنه الملك (غياث الدين توران شاه) الذي كان آنذاك في الشام، فجاء إلى مصر ومعه مماليكه، وقدمهم على مماليك أبيه (البحرية)، ولما اشتدت إهانته وتحقيره لهم وثب عليه أربعة منهم وفتكوا به، وبدأت تبزغ إلى الوجود دولة المماليك البحرية، ارتقى إلى العرش (عز الدين أيبك) وبويع بالسلطنة في سنة ١٣٥٠، ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركمان الصالحي، وسرعان ما قتلته زوجته شجرة الدر، وتولى الملك ابنه نور الدين علي، وفي الحقيقة كانت شجرة الدر هي الملكة الحقيقية للدولة، وبعد وفاتها بنى ابنها نور الدين لها قبرا عليه قبة فخمة لا

تزال قائمة بمصر، وهذه القبة تم التحول فيها من المربع إلى المثمن بواسطة محاريب عديدة فوقها دائرة تعلوها القبة.

الملك الظاهر بيبرس:

إن شجرة الدر، وإن كانت تعتبر أول مؤسسة لدولة المماليك البحرية، إلا أن الملك الظاهر بيبرس الذي كان من مماليك الصالح أيوب هو الذي لمع اسمه بعد حرب المنصورة، وانتصر على سنت لويس ملك فرنسا، وأوقف تقدم المغول إلى سورية، كل هذه الانتصارات مكنته من تأسيس دولة قوية في مصر وسورية وتنظيم جيش قوي فتح به يافا وأنطاكية وقضى على الدويلات الصليبية التي تأسست على سواحل سورية.

وجاء بعد الظاهر عدة ملوك منهم الملك قلاوون وابنه خليل الأشرف ثم الناصر، وقد اشتهر بحبه للعمران والإكثار من البناء، وتقدمت الفنون الأخرى في عهده تقدمًا لم يسبق له مثيل، وكان له تسعة أولاد اشتهر منهم الحسن في ميله الكبير لإنشاء العمارة.

العمارة في عهد المماليك البحرية:

ظهر في عهد المماليك البحرية إنتاج باهر في فن العمارة وهندسة البناء بأسلوب جذاب متقن، ففي المساجد والمدارس والأضرحة التي شادها قلاوون والناصر والحسن بلغ فن العمارة الإسلامية أبهى مظاهره، كما لمعت تلك الحقبة التي جاءت بعدها البرجية بالأبنية التي شادها برقوق وقايتباي والغوري، وتعود مبادئ فن العمارة المملوكية إلى أصول (نورية) أو

(أيوبية)، كما أن مؤثرات سورية وعراقية اتصلت بها عندما أصبحت مصر مأوى الفنانين والصناع اللاجئين إليها من الموصل وبغداد ودمشق.

جامع الظاهر بيبرس:

شيد بيبرس مساجد كثيرة بالقاهرة وحلب وبصرى ودمشق، ولكن أهمها جميعا جامعه العظيم الموجود بميدان الظاهر في القاهرة، لقد تم إنشاء هذا الجامع سنة **١٢٦٩** م، ويشغل أرضا مساحتها **١٠٨ × ١٠٥** مترا، وله صحن يحيط به أربعة أواوين: القبلي ويتكون من ستة أروقة، وفي كل من الإيوان الشرقي والغربي **٣** أروقة، أما الشمالي فيتكون من رواقين، وتقع قبة الجامع أعلى المحراب فوق مربع ضلعه **٢٠** مترا، وهي على مثال قبة الشافعي، ومن مميزات هذا الجامع الأبواب الثلاثة البارزة، واستعمل في بناء الجدران مداميك الحجر الأبيض والأحمر على التوالي.

مسجد الناصر ومدرسته:

أنشأ الناصر مسجدا بالقلعة في سنة **٧١٨** هـ/ **١٣٨١** م، وأعاد بناءه سنة **٧٣٥** هـ/ **١٢٢٤** م، وهو من الجوامع الكبيرة، وقد خالف في تخطيطه نظام الأواوين المتعامدة (المصلبة) الذي كان سائدا في عصر المماليك، فأقيم هذا الجامع على النظام القديم من أربعة أواوين تحيط بصحن مكشوف، وأكبر تلك الأواوين إيوان القبلة، عليه قبة كبيرة محمولة على أعمدة ضخمة من الكرانيت الأحمر. ولهذا المسجد مئذنتان وبابان: أحدهما غربي تجاوره المئذنة الأولى، وهي أسطوانية الشكل، والباب الثاني

بالواجهة الشمالية وفي نهاية المئذنة الثانية وهي مربعة القاعدة، ويغطى القاشاني المئذنة الأولى كما يغطي الدور الثاني للمئذنة الثانية.

أما المدرسة فقد بناها الناصر ملاصقة لقبة السلطان قلاوون بشارع المعز لدين الله، وكان الملك (العادل زين الدين كتبغا المنصوري) واضع أسسها، وقد خلع من الملك قبل إتمامها، فأكملها الناصر وبنى بها قبة، ونقل إلى القبة رفات والدته، ودفن بها ابنه (أنوك)، ولم يبق من هذه المدرسة سوى الإيوان الشرقي.

مسجد السلطان حسن:

أنشأ هذا المسجد السلطان حسن سنة ٧٥٨ هـ/ ١٢٥٦م، وانتهى من بنائه في ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٣م ، وتشرف واجهتاه الجنوبية والشرقية على ميدان صلاح الدين، أما واجهته الشمالية وهي الواجهة الأصلية فتشرف على شارع القلعة، يشغل هذا المسجد مساحة تقرب من ٧٩٠٦ مترا مربعا، وله جدران عالية ضخمة، ارتفاعها عند بابه ٢٧.٧٠ مترا، وتمتاز زخارف المسجد في كونها تشبه خلايا النحل، كما توجد في الحيطان تجاويف عمودية، وهيئة النوافذ فيها على ثماني طبقات.

لهذا المسجد أربعة أواوين متعامدة متصالبة حسب الطراز المملوكي يتوسطها صحن مكشوف تتوسطه ميضأة، وفي كل زاوية من زوايا الأواوين الأربعة باب يوصل إلى إحدى المدارس الأربع المخصصة لدراسة المذاهب الإسلامية الأربعة، وأكبر هذه المدارس مدرسة الحنفية، تبلغ مساحتها ٨٩٨ مترا مربعا، وأكبر الأواوين الإيوان الشرقي، في وسط

واجهته الشرقية محراب من الرخام المطعم، وعلى يمينه محراب من الرخام الأبيض، وعلى جانبي القبلة بابان يوصلان إلى تربة السلطان وتعلوه قبة عظيمة، وعلى طرفي الواجهة الجنوبية الشرقية مئذنتان، وقد سقطت المئذنة الأولى قبل إكمالها، ويعد هذا المسجد أضخم مساجد مصر عمارة، وأعلاها بنيانًا، وأكثرها فخامة، وأحسنها شكلاً، وأجمعها لمحاسن العمارة في مصر.

مارستان قلاوون ومدرسته وتربته:

هذه مجموعة كبيرة من المباني أنشأها قلاوون سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م ، في شارع بين القصرين، ولم يبق من هذه المجموعة الآن غير جزئين من القاعتين الشرقية والغربية وجانب كبير من القاعة القبلية، ويشغل مساحة كبيرة منه في الوقت الحاضر مستشفى قلاوون للرمد، وينقسم البناء إلى قسمين: جنوبي وهو واجهة المدرسة، وشمالي وهو واجهة التربة التي تعلوها القبة، والقبة القائمة الآن حديثة البناء وقد شيدت بعد أن تهدمت القبة الأصلية، وقد وضعت المئذنة في نهاية القسم الشمالي من الواجهة، وتتكون من ثلاثة أدوار: الأسفل والأوسط منها مربعان، والثالث مستدير، وقد جدده الناصر قلاوون من زلزال هدم هذا الجزء، وبين هذين القسمين الباب الرئيسى للمجموعة وتكون واجهة هذا البناء في مجموعها منظرا من أروع مناظر العمارة الإسلامية بالقاهرة.

مدرسة وتربة الأمير سلار والأمير سنجر الجاولي:

بنيت المدرسة والتربة على رابية جنوب مدينة القاهرة وعلى مقربة من جامع ابن طولون، وتعلو التربة ثلاث قباب: اثنتان منها متجاورتان وواقعتان على واجهة الطريق، وبالقرب من القبة الكبيرة ترتفع المئذنة، وبالنظر لارتفاع البناء عن مستوى الشارع، فقد أوجب ذلك عمل درجات في خارج وداخل البناء، ويقع مدخل المدرسة عند رأس الدرج الداخلي، ومنها يمكن الدخول إلى التربة بعد اجتياز ممر طويل معقود السقف، والبناء من الخارج مبني بالحجر، والمئذنة بشكل برج مربع يعلوه منشور مثمن مبني بالآجر ومغطى بطبقة من الجص فيه مقرنصات جميلة، أما القباب فهي ذات مضلعات عديدة تستدق وتتجمع في القمة.

دولة المماليك البرجية (الشراكسة):

قامت هذه الدولة بعد ذهاب دولة المماليك البحرية، وقد سموا بـ (البرجية) لسكناهم في أبراج القلعة، وقد حكموا مصر من سنة ٧٨٧ هـ/ ١٣٨٢م إلى سنة ٩٢٤ هـ/ ١٥١٧ م، وكان عدد سلاطينهم ٢٣ سلطانا، وكلهم شراكسة عدا اتنين كانا روميين، وقد حذا المماليك الشراكسة حذو المماليك البحرية فعمروا القاهرة، وامتدت أبنيتهم مسافات بعيدة في صحراء الريدانية (العباسية) حتى وصلت إلى ما يعرف الآن بـ (كوبري القبة)، وقد استمر تقدم فن العمارة في عهدهم، وشيد كثير من سلاطينهم الأبنية الفخمة، وأدخلوا كثيرًا من التعديلات على

هندسة البناء، فتميزت أبنيتهم بميزات صارت علماً على فن العمارة في عهدهم.

مسجد السلطان برقوق:

أنشأ هذا المسجد الملك (الظاهر أبو سعيد فرج بن برقوق) أول ملوك الشراكسة سنة ٧٨٨ هـ/ ١٢٨٤ م، يقع هذا المسجد في الجهة الشمالية من مدرسة الناصر قلاوون بالنحاسين في القاهرة، فصارت الواجهتان تكونان مجموعة من أجمل المباني الثرية منظراً، يؤدي الباب العمومي لهذا المسجد إلى طرقة توصل إلى صحن تحيط به أربعة أواوين متعامدة أكبرها إيوان القبلة، وينقسم هذا الإيوان إلى ثلاثة أروقة أكبرها الرواق الأوسط، وجميعها مسقوفة بسقوف خشبية مموهة بالذهب بدلا من القبوات الآجرية المعروفة، أما الأواوين الثلاثة الأخرى فهي مسقوفة بقبوات حجرية، وفي وسط الصحن فسقية تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة رفيعة من الرخام، وأرضية الصحن مفروشة بترابيع من الرخام البيض.

وفي الركن الشمالي الشرقي للصحن باب يؤدي إلى التربة، تعلوها قبة ذات أركان مقرنصة، ولهذا المسجد مئذنة شامخة ضخمة متناسبة الأبعاد تعد الأولى من نوعها بين المآذن، وتقع في الطرف الشمالي للواجهة الشرقية المشرفة على شارع بين القصرين. وقد بنى برقوق لنفسه تربة أخرى في مقبرة المماليك ودفن فيها، وتعرف بـ (القرافة الشرقية)، وهذه التربة في الواقع عبارة عن مدرسة ومسجد للصلاة وخانقاه فخمة

للصوفية، جمعها السلطان برقوق في صعيد واحد لذلك صارت أضخم تربة في القاهرة بالإضافة إلى وجود مميزات معمارية فيها.

جامع السلطان الملك المؤيد:

بنى هذا الجامع الملك (المؤيد أبو النصر) شيخ المحمودية سنة ٨٠٨ هـ - ٨١٢ هـ/ ١٤٠٥ م - ١٤١٠ م، ويقع الجامع بجوار باب زويلة، ومدخله موجود في الطرف الشمالي للواجهة الشرقية، وقد تهدم ثلاثة من أواوينه، ولم يبق سوى الإيوان الشرقي، والسقف محمول على أعمدة من رخام، وكله محلى بنقوش زخرفية بديعة، ولهذا الجامع منارتان قائمتان على بدنتي باب زويلة، وبأعلى الواجهة الشرقية توجد آيات قرآنية، وقد بنيت قبة الجامع بتحويل المربع إلى شكل دائري بواسطة محاريب مرتبة بعضها فوق بعض.

جامع وتربة قايتباي:

هذه التربة مجموعة نادرة من المباني، بديعة التصميم، متناسقة المباني، تتكون من مدرسة وملحقاتها، وتربة وسبيل وكتاب شيدها (الأشرف أبو النصر قايتباي) سنة ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٤ م، ويقع مدخل هذه المجموعة من الأبنية بالواجهة الشمالية، وعلى يسار المدخل سبيل يعلوه كُتَّاب للأطفال، وعلى يمينه تقوم مئذنة رشيقة تعتبر من أجمل المآذن بالقاهرة، كما تعد القبة الموجودة في نهاية الواجهة الشرقية من الجهة الجنوبية من أجمل القباب أيضا، إذ أنها مغطاة بزخارف هندسية مزهرة بديعة، وقد أصبحت التربة تحتل المكانة الأولى في البناء.

وصحن هذا البناء مغطى بسقف مزخرف يحيط به أربعة أواوين: الشمالي والجنوبي صغيران وهما متقابلان، والشرقي أكبر منهما ينوسط جداره القبلي محراب، وتقع تربة قايتباي وابنه جنوبي الإيوان الشرقي مباشرة، ويتصل الإيوان بالتربة بواسطة باب في الجهة الشرقية.

مسجد أو مدرسة الغوري:

أنشأ هذا المسجد أو المدرسة الملك الأشرف (قانصوه الغوري) سنة ٩١١ هـ/ ١٥٠٤ م، ويقع المسجد بشارع الغورية في مواجهة منشآت الغوري الأخرى التي تتكون من مدفن وخانقاه ومكتب ومقعد، ويتألف المسجد من صحن يحيط به أربعة أواوين أكبرها الإيوان الشرقي، يغطيها جميعاً سقف ذو نقوش مموهة بالذهب، ويقع مدخل هذه المدرسة في الجهة الشرقية، ويقابل المدخل التربة والخانقاه.

قتل السلطان الغوري تحت سنابك الخيل في الموقعة الحربية التي حدثت بينه وبين السلطان (سليم الأول) العثماني في (مرج دابق) بالشام سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٦ م، ولذلك لم يدفن بتربته المقابلة لهذا المسجد، وبقتله تم القضاء على دولة المماليك الشراكسة في مصر، وانتصر العثمانيون وغزوا مصر واستولوا عليها.

المدرسة العثمانية التركية

دوله سلاجقة الروم

السلاجقة هم أحد بطون الغز، جاءوا من سهول تركستان سنه ٣٤٥ هـ/ ٩٦٥ م، ودخلوا بلاد ما وراء النهر، ثم سيطروا تمامًا على غربي آسيا الوسطى.

ويدعي السلاجقة الفرس بأنهم من سلاله ملكية يرجع نسبهم إلى (سلجوق بن دقماق) أحد أمراء التركمان، وقد مات سلجوق وتولى القيادة بعده ابنه (إسرائيل) الذي هجم على (محمود الغزنوي) ولكنه وقع أسيراً بيد الغزنويين فانتقلت الزعامة إلى أخيه (ميكائيل) فتمكن هو وأولاده من بسط سيطرتهم على مناطق خراسان بأجمعها، وأعلن ولداه (طغرليك) و(داود) نفسيهما حاميين للخلافة العباسية في بغداد بعد القضاء على حكم (البويهيين).

تولى السلطة بعد طغرليك (آلب أرسلان) واتخذ من (نظام الملك) وزيراً، وكان شجاعاً قاد الجيوش واستولى على مكة والمدينة منتزعا إياها من أيدي الفاطميين، ثم احتل حلب فامتدت حدود مملكته من حدود أفغانستان إلى حدود مصر. وقد تمكن من دحر جيوش البيزنطيين وأسر الإمبراطور (رومانوس)، وتم بذلك فتح الطريق أمام السلاجقة للتوجه نحو الغرب. فاختار آلب ارسلان (سليمان بن قتلمش) وهو أمير صغير من العائلة المالكة لإدارة الجبهة الغربية، وعندما جلس (ملكشاه) على عرش

السلاجقة عين سليمان حاكماً على الروم، وبدهائه كون هذا أول إمارة سلجوقية في الأناضول. وفي سنه ١٠٧٨ م، أعلن نفسه سلطاناً واستقل عن السلاجقة الفرس.

الإعمار والإنشاء في زمن السلاجقة

قام السلاجقة عند احتلالهم المدن الأجنبية بإنشاء وتعمير تحصيناتها وبناء الجوامع فيها، ولم يمض وقت طويل حتى ملأت فضاء المدن المنائر، ثم انتشرت هنا وهناك الأضرحة الضخمة ذات السقوف المخروطية فغيرت شكل الفضاء أكثر فأكثر، وبعدها التفتوا إلى ناحية العلم فأنشاوا المعاهد والمدارس والمياتم ودور العجزة والبيمارستانات، وعلى الرغم من اشتباكهم مع أعدائهم في حروب مستمرة فقد كان لديهم متسع من الوقت لرعاية وإنشاء الكثير من المؤسسات الخيرية، وقد شيدوا مدرسة طبية ومستشفى ملحق بها في مدينة (قيصري) وسميت هذه بـ (مدينة الشفاء)، ومدرسة على غرار (دار الشفاء) في (سيواس) فكانت نموذجا احتذت به الإمبراطورية العثمانية فيما بعد. وقد عمر السلاجقة طريق القوافل ، وبنوا الجسور ، وبشبكة من دورا الاستراحة (الخانات) في هذة الطرق ، واشتهر من هذه الخانات (سلطان خان) في طريق قونية وآق سراي ، وخان (قرطاي) بين قيصري وملاطية

وكانت بعض الخانات فاخرة البناء ذات أسوار عالية فيها أبراج للدفاع عنها، جدرانها من الحجر وفيها زخارف ونقوش متشابكة ومعقدة تحيط بأبوابها، أما في الداخل فكان كل شئ يبعث على الارتياح، ففي

داخل الخان جامع وبركة ماء ومخازن واصطبلات ومقهى وحمام ومعمل لإصلاح لوازم القافلة.

بناء الجوامع في العهد السلجوقي:

أبدى السلاجقة عند اعتناقهم الدين الإسلامي حماسا كبيرا لهذا الدين، واعتبروا حماية الخليفة الشرعي من واجبهم، وقد دعت هذه النظرة السلاجقة للقيام ببناء الجوامع الفخمة والمعاهد الدينية الكبيرة للدلالة على شدة إيمانهم وتمسكهم بالدين الحنيف، وقلما سمحوا باختيار كنيسة لهذا الغرض، اضطر جو آسيا الصغرى القاسي السلاجقة إلى أن يتخلوا عن طراز الجامع ذي الصحن أو الساحة الكبيرة واستعاضوا عنها بأخرى داخلية، ومع هذا فقد حافظوا على شكل الجامع المربع أو المستطيل في بداية عهدهم، وعندما بنوا الجامع الكبير في قيصرى عام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م، والجامع الكبير في أرضروم عام ٥٢٤ هـ/ ١١٣٩ م، تركوا فسحة غير مسقفة في وسط الجامع ليستعيدوا ذكرى الساحة المكشوفة التي أزيلت من هذا الطراز ، ثم أضافوا نافورة للوضوء داخل الجامع تحت القبة المركزية لتكون بديلا عن تلك التي كانت توجد في الساحة الخارجية.

كان للجوامع الأولى التي بناها السلاجقة سقف منبسط من الخشب مرشوش بالتراب المدقوق، وقد استعملت القبة البيضوية عند بناء جامع (قونيه) عام ٦١٧ هـ – ١٢١٩ م، ويزين داخل القبة بالقاشاني أو الطابوق المزجج، وكان الفن المعماري لسلاجقة الروم في أول الأمر يشبه الفن المعماري لسلاجقة الفرس، وأهم ما يجلب النظر في هذه المباني

الضخمة هو اهتمام مصمميها بالباب الوحيد فيها، فيجعلوا لحواشي هذه الأبواب إطارا فيه مجموعة كبيرة من الأحجار المنحوتة والمزخرفة زخرفة معقدة متشابكة ومرتبة بشكل غريب، وتنتشر هذه الزخارف لتشمل الواجهة بأسرها وحول النوافذ المرتفعة أيضًا.

بناء الأضرحة السلجوقية:

لعل من أهم البنايات السلجوقية التي لا تزال باقية بأعداد كبيرة حتى الآن هي الأضرحة التي تعرف باسم (التربة)، فهي من أجمل الأخيلة الشعرية السلجوقية التي تبرز معارة السلاجقة الفنية، وقد يظن أنها من طراز الأبنية في آسيا الوسطى أكثر من كونها إسلامية، وتقسم هذه الأبنية إلى قسمين: الأول له برج أسطواني أقصر وأعرض من أبراج ذات الأبراج المدببة الرأس المنتشرة في شمال فارس، وسقفه على شكل قبة عريضة واطئة مثل (قبر سرجلى) في قيصري، وتكسى القبة أحيانا من الخارج بالقاشاني الفيروزي اللون، بينما نجد النوع الثاني دائرى أو متعدد الأضلاع أو مثمن الجوانب، يرتكز على قاعدة مربعة ومسقف ببرج مخروطي الشكل، وتحمل عادة أمثال هذه الأبراج كتابات ونقوش محفورة بطريقة فنية ومزينة في أغلب الأحيان بزخارف ومنحوتات، وإن كان أغلبها يترك بدون زخرفة فيبدو جمالها معتمدا على نوعية وتناسق فنها المعماري، وتتكون أغلب الأضرحة من طابقين يستعمل الطابق الأرضي منها كمقبرة، ويؤدي إلى الطابق الأعلى سلم، ويحتوي هذا الطابق على مصلى فيه محراب، ويأخذ سقفه شكل قبة عريضة مسطحة، ومن أروع هذه الأضرحة ضريح (الخليفة

غازي) في (أماسية)، كما نجد مجموعة من هذه الأضرحة الرائعة في مدينة دان وطوقات وضريح (دونر) في قيصري، وضريح (توروتاي) في أماسية، وضريح (أوندة خاتون) في نيغده، وتعتبر هذه الأضرحة من الروائع الأصيلة وإن شبهها البعض بأبراج الكنائس الأرمنية.

المدارس والمعاهد الثقافية السلجوقية:

أنشئت المعاهد الثقافية الخيرية في آسيا الصغرى على حساب مؤسسيها من العائلة المالكة وغيرهم من المحسنين، واتبع الجميع طرازًا معماريًا متشابهًا، فقد أقيمت هذه العمارات على شكل بناية قائمة الزوايا، تتألف من الإيوان ذات الأقواس على شكل حدوة الفرس، يتجه أحد هذه الأقواس نحو المدخل، بينما تفضي الأقواس الثلاثة الأخرى إلى الإيوان المقام في مركزية البناية، وتتوزع الغرف الصغيرة في الفراغات الموجودة بينها، وقد أنشئ البعض منها بطابقين في حالة اتخاذ البناية كمدرسة، ويرتفع سقف الإيوان إلى سطح البناية، بينما نجد أن البعض منها قد شيد فوق غرف صغيرة، وكمثال على ذلك (سرجلي مدرسة) في قونية سنة ٦٤١ هـ/ ١٣٤٢ م، و(جفته مدرسة) في أرضروم سنة ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٢م.

وترتكز في وسط صحن المدرسة نافورة يمتد حولها رواق كبير يعطي المدرسة شكل أروقة متداخلة، وعندما تسقف البناية بأكملها فضاء مداخلها بالعديد من النوافذ على شكل كوى في القبة المركزية، أما غرف النوم فتكون عادة في الطابق الأرضي، كما يضم هذا الطابق غرفًا منعزلة

لموظفي إدارة المعهد، وقد تجاوز هذه المعاهد جامعًا، كما في (مدرسة ديورغي)، ويعتبر المسجد جزءا من المدرسة.

العمارات العراقية المتأثرة بالفن السلجوقي:

يظهر الفن السلجوقي بصورة جلية في بناية بدر الدين لؤلؤ الأتابكي المعروفة بـ (قره سراي) في الموصل، حيث نلاحظ في هذا القصر المتهدم بقايا زخارف جصية مكونة من عناصر طريفة بينها صور أشخاص وطيور، وقد بنى بدر الدين قبر الإمام (يحيى بن القاسم) على مقبرة من نهر دجلة، وعلى وجه المزار كتابات بالخط الكوفي.

وصلت الموصل إلى قمة مجدها خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر وأيام حكم (الأتابكة)، وكان بدر الدين مقدرا للأمور، استطاع أن يتفاهم مع المغول الغزاة، فجنب مدينة الموصل شرهم، ولكن ابنه (الملك الصالح) حاول أن يقاوم (هولاكو) فما كان من هذا الا أن انقض على الموصل عام ٦٦١ هـ/ ١٢٦٢ م، وقتل الملك.

مئذنة الجامع الكبير في الموصل:

بنى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الجامع الكبير أو الجامع النوري في وسط مدينة الموصل، وذلك سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٦٩م، وانتهى منه سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧١م، وقد اشتهر هذا الجامع بمئذنته المائلة التي تعد أقدم المآذن في الموصل، وهي أكثر المآذن العراقية النتأثرة بالفن السلجوقي، لقد بنيت هذه المئذنة بأجود أنواع الآجر، وزينت بنقوش

آجرية متنوعة، ويبلغ ارتفاع المئذنة أكثر من ٥٥ مترا، فهي إعلى مئذنة في العراق بعد الملوية، وتتألف من قاعدة مربعة، وبدن أسطواني يضيق تدريجيا مبتدأ بثلاثة أمتار، ومنتهيًا بأكثر من مترين قبل القمة التي تشبه الخوذة، وقد رصف سطحها الخارجي بطريقة التلاعب في وضعيات الآجر، وفي داخل بدن المنارة سلمان، يبدأ السلم الأول من الأرض والثاني من أعلى القاعدة، وكلاهما يؤديان إلى أعلى المنارة.

وبنى السلطان بدر الدين جامعا آخر هو جامع الإمام (عون الدين بن حسن بن علي) في الموصل. ومن الجوامع القديمة في الموصل جامع (النبي جرجيس)، وكان في طالعة شأنه مسجدا صغيرا ثم أخذ يتوسع على مر العصور حتى صار يعرف بـ (مشهد النبي جرجيس)، وفي القرن الثامن للهجرة أضيف إلى المشهد أقسام أخرى واتخذ جامعًا. وعندما استولى (تيمورلنك) على الموصل عمَّر هذا الجامع ووسعه وبنى قبة فوق قبر النبى جرجيس، وصار يعرف بـ (جامع النبى جرجيس).

ومن مساجد الموصل (الجامع المجاهدي) الذي بناه (مجاهد الدين قيماز) الذي فوض إليه الأتابك (سيف الدين غازي الثاني) صاحب الموصل، الحكم في سائر بلاده وبقي حتى أدركه أجله سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م، ويقع هذا الجامع على شاطئ نهر دجلة جنوبي الموصل، وقد سمي بـ (جامع الخضر) كما سمي بـ (الجامع الأحمر) للون الأحمر في مصلاه.

بني الجامع سنة ١١٧٦ م، واعتنى مجاهد الدين في تزيينه بكتابات مختلفة بعضها بالجص وبعضها بالآجر، وتعلو المصلى القبة القديمة التي كان

بناها مجاهد الدين، وهي على شكل نصف كرة مبنية بالآجر وتستند من الداخل على مقرنصات، والمحراب في هذا المصلى هو أكبر محراب أتابكي، وفي أعلاه زخارف جبسية فريدة في بابها وجميعها نافرة.

المدارس في الموصل:

ازدهرت الحركة العلمية في الموصل بعد أن اتخذها الأتابكيون عاصمة لملكهم (٥٢٢ – ٦٦٠ هـ/ ١١٢٤ – ١٢٦١م)، فأسسوا معاهد العلم المختلفة من مدارس حديث ودور قرآن ورباطات، ومما يؤسف له أن هذه المدارس أهملت بعد أن قضى بدر الدين لؤلؤ على بناء أبناء البيت الأتابكي، فتحولت أكثرها إلى مقاسات ومشاهد، فمن المدارس المشهورة (مدرسة الكمالية) التي شيدها (زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين) المتوفى سنة ٦٦٦ هـ/ ١١٦٧ م، ولا تزال بناية هذه المدرسة باقية إلى اليوم وهي تشرف على دجلة وتعرف بـ (مدرسة ابن يونس) أو (جامع شيخ الشط) وتتألف المدرسة من غرفة كبيرة مثمنة الشكل فوقها قبة تستند إلى مقرنصات، وللمدرسة فناء واسع بنيت فيه تكية.

أما (مدرسة الجامع النوري) فقد بناها (نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي) بعد أن فرغ من بناء الجامع النوري الكبير سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧٢ م، واتخذ فيها مشهداً للإمام محسن وعندما حدثت تغييرات كثيرة في الجامع لم يبق من معالم المسجد القديمة سوى المحراب الذي داخل المصلى وبعض الأساطين، أما المدرسة فلا أثر لها اليوم.

وقام بدر الدين لؤلؤ ببناء (المدرسة البدرية) وشيد فيها مشهدًا للإمام (يحيى بن القاسم) سنة ٦٨٣ هـ/ ١٢٣٩ م، وتقع المدرسة شمال مدينة الموصل وهي تشرف على دجلة، وتحتها عين كبريت ولم يبق من المدرسة سوى المشهد الذي دفن فيه بدر الدين بعد وفاته سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٩٨ م، وهذا البناء من أنفس العمارات التي شيدت في العصر الأتابكي لما تحويه من النقوش والزخارف والكتابات المتنوعة في داخل البناء وخارجه، والبناء عبارة عن غرفة مربعة الشكل تعلوها قبة مرتفعة غنية جدًا بزخارفها ونقوشها وكتاباتها، وهي تستند إلى مقرنصات مزينة بزخارف هندسية بعضها بالجص وبعضها بالآجر، تدل على مدى ما كانت عليه الريازة من تقدُّم آنذاك، ويعلو القبة قبة أخرى كانت مبنية بالآجر الأزرق، يفصل بين القبتين فراغ واسع، وهذه القبة هي التي حفظت القبة الداخلية من التلف.

مرقد أمام دور:

(الدور) قرية صغيرة تقع على ضفة دجلة اليسرى بين تكريت وسامراء، في هذه القرية قبة لمرقد الإمام (مُحَمَّد الدور)، تحيط به خرائب قديمة يحتمل أنها آثار من العصر العباسي، وينتهي نسب هذا الإمام إلى الإمام موسى الكاظم (ع)، توفي قبل الثلاثمائة للهجرة، والضريح هذا عبارة عن بهو مربع الأركان يبلغ طول كل ضلع منه قرابة ٣٠ مترا وفي أعلاه قبة مخروطية الشكل معقودة بالجص والآجر مربعة الأركان من

الأسفل، ويبلغ طول كل ركن منها نحو ٢٠ مترا، وهي تشبه قبة زمرد خاتون المخروطية في بغداد.

مئذنة عنه:

تقع هذه المئذنة في الجزيرة الرئيسية في مدينة عنه، تلك الجزيرة المعروفة بـ (جزيرة لباد) إن هذه المئذنة الجميلة العالية ذات ثمانية وجوه تزينها صفوف من كوى ذات حنيات وأعمدة، وبعض هذه الكوى مفتوح إلى الداخل لإنارة السلم الحلزوني في باطنها، ويلاحظ في المئذنة أنها تستدق إلى الأعلى حيث تنتهي بجزء ذي طبقتين من الكوى، وهو أصغر قطرا من الجزء الأسفل، إن هذه المئذنة تكاد تكون فريدة من نوعها في العراق، وليس بالإمكان تحديد الزمن لتشييدها، وأغلب الظن أنها شيدت في عهد (بني عقيل) حكام الموصل الذين امتد نفوذهم في القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر الميلادي، من جزيرة (ابن عمر) إلى المدائن، وشمل وادى الفرات الأوسط.

مرقد ذي الكفل:

تقع (الكفل) على الضفة الشرقية من شط الهندية أحد فروع نهر الفرات، وفي الكفل (مرقد حزقيال) ذي الكفل، وعليه قبة مخروطية الشكل من طراز مرقد (زمرد خاتون) السلجوقي، وفي الكفل مئذنة شاخصة بناها السلطان (أولجايتو خربنده) سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣١٥ م، وهي تشبه منارة جامع الخلفاء في بغداد ولكنها أصغر منها. وهناك أسطورة تقول أن الذي شيد هذه المنارة دعا أستاذه إلى مشاهدتها، ولما صعد بها

كان في نيته أن يلقي بتلميذه منها حنقاً وحسدًا، فرآه قد نزل من السلم الآخر المشيد داخلها مما لم يستطع أن يتحمله، فرمى بنفسه من المنارة ومات منتحرًا.

إيران في العهد السلجوقي:

قضى العرب على الدولة الساسانية سنة ٢٢هـ/٦٤٣ م، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) واعتنق الإيرانيون الإسلام، وأسهم الشعب الإيراني كما أسهمت الشعوب الإسلامية الأخرى في بناء الحضارة الإسلامية، لقد زالت آثار معظم المنشآت الإيرانية التي ترجع إلى بداية عهد المسلمين الأوائل، وإن أقدم تلك المنشآت مسجد (دمغان) تلك المدينة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين، وكذلك مسجد (نايين) التي تقع شرقي مدينة أصفهان.

حكم إيران ولاة في زمن الخلفاء الراشدين ثم الأمويين وبعدهم العباسيين، ثم ظهرت فيها دويلات أهمها دولة السامانيين ودولة البويهيين، ومن آثار السامانيين (مرقد إسماعيل الساماني) في بخارى الذي شيد في عام ٩٠٧ م، ولهذا المرقد أهمية خاصة في طريقة الزخرفة بقوالب الآجر، وبعد هذا جاء دور السلاجقة فظهرت في زمنهم نهضة كبيرة في الإنشاء والعمارة، فظهر طراز جديد لبناء المساجد أدخل التخطيط القديم عناصر أدت إلى تعديل نسقه كليًا.. من تلك المساجد:

مسجد الجمعة في أصفهان:

يشاهد تأثير الطراز الجديد واضحاً في بناء هذا المسجد الكبير في أصفهان المسمى (مسجد الجمعة) بنى هذا المسجد سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م، بشكل مستطيل طوله ٢٢٥ مترًا، وعرضه ٨٤ مترا، وللمسجد صحن واسع في جهة القبلة منه، ويقوم السقف على أعمدة تكون ١٩ أسكوبا باتجاه العمق، وستة أروقة موازية لجدار القبلة، ومثل هذا النظام يتكرر في مؤخرة المسجد، وعلى الجانبين الآخرين أجزاء مغطاة تكون كل منها ثلاثة أروقة.

وفي سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م، أقيم في الساحة الواقعة أمام المحراب صالة ذات قبة مرتكزة على أقواس مغلقة من الجهتين، وقد زاد السلاجقة في جلال مظهر المسجد بإنشاء الأواوين الأربعة الكبيرة التي تفتح على صحن الجامع، وقد أصبح هذا الطراز طابعا تقليديا في بناء المساجد الإيرانية، وطبق أيضا في بناء المدارس.

مرقد الأمير سنجر:

للأمير (سنجر) آخر السلاجقة الكبار مدفن في (مرو) يمتاز بقبته التي تزينها من الداخل حزم من العروق النافرة المتشابكة، وتتألف القبة من عدة تروس، تفصلها قوائم وأقواس تحيط بحجرات فارغة من رشاقة البناء وتحول دون تشويهه، وفي القرن الحادي عشر ظهر في إيران نوع آخر من

عمارة المدافن مؤلفة من برج مضلع أو برج مسنن أو أسطواني مغطى بقبة مخروطية.

لقد شهد هذا العهد تركيزا على شكل المآذن التي ترتفع فوق قاعدة ذات أربعة أو ثمانية أضلاع، يعلوها برج دائري مرتفع جدًا بصورة عامة، ثم يأخذ بالتضييق من القاعدة حتى الذروة، ويقوم عند الربع الثالث من المئذنة طنف مزين بمقرنصات تحمل شرفة للأذان، ثم طنف آخر بارز يسبق ذروة المئذنة المؤلفة من قبة صغيرة، وكانت معامل الخزف القاشاني في ري وجرجان في هذه الفترة تنتج أحسن أنواع القاشاني ذي البريق المعدني، وكانت هذه تستعمل بكثرة في زخرفة المساجد والمراقد.

الأتراك العثمانيون:

ظهر الأتراك العثمانيون في آسيا الصغرى (الأناضول) عندما بدأ السلاجقة الروم يأفل هناك في نهاية القرن الثالث عشر، فقد أقطع السلطان (علاء الدين الثاني) سلطان قونية أحد القبائل التركية بعض الأراض الواقعة في أقصى الشمال الغربي من بلاده، على الحدود التي تفصل بين أملاكه وأملاك البيزنطيين، وقد ترك لرئيس هذه القبيلة المسمى (أرطغرل) حرية توسيع مقاطعته الصغيرة على حساب جيرانه البيزنطيين، وعندما مات أرطغرل ورث ولده (عثمان) أو (عصمان) هذه الأراضي عن أبيه واستطاع أن يوسع رقعتها بمهاراته، فقويت شوكة دولته، فاستحق بذلك أن يكون المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية والتي نسبت إليه وسميت

باسمه، وقد سار خلفاء عثمان على نهجه في سياسة التوسع، ونمت مملكتهم حتى شملت الأناضول بأكمله.

بورصة عاصمة العثمانيين الأولى:

استولى السلطان (أورخان) على مدينة بورصة في سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م، وطرد البيزنطيين خمسة من سلاطينهم، وقد بدأ هؤلاء السلاطين في إعمارهم هذه المدينة القديمة فأنشأوا عدة جوامع ومساجد فيها، كما بنوا فيها المدارس ودور الشفاء والخانات والحمامات العامة وعدة أضرحة كبيرة للسلاطين، ويدعى أكبر جامع فيها (أولو جامع) أى الجامع الكبير الواقع في سرة المدينة، وتبلغ مساحة هذا الجامع ٦٠×٨٠ مترًا تقريبًا، فيه أربعة أروقة تعلو كل رواق خمسة قباب قائمة على دعامات ضخمة مبنية بالحجر، ولهذا الجامع مئذنتان شامختان قائمتان على طرفي الواجهة الشمالية للجامع، وإن أجمل ما في هذا الجامع محرابه الدقيق الصنعة على الطراز السلجوقي، وفي وسط الحرم فسقية نافورة يتدفق الماء فيها وتصطنع ميضأة، شرع في بناء هذا الجامع العظيم السلطان (يلد رم بايزيد) سنة ٧٩٨ هـ/ ١٣٩٥ م، ومات قبل إتمامه فأكمل البناء السلطان (مُحَمَّد جلبي) عام ٨١٦ هـ/ ١٤١٢م.

مساجد بورصة:

قام كل سلاطين آل عثمان الأوائل بتشييد بناء ضخم كان يستعمل ديوانا أو سرايا له يجلس فيه هو ورجال دولته لإدارة شؤون المملكة، وبعد وفاتهم أصبحت هذه البنايات إما مقرًا للصوفية أو مدرسة،

ثم تحولت إلى جوامع للصلاة كما هي قائمة اليوم، من هذه الجوامع جامع السلطان أورخان الذي يعد أقدم ما شيده السلاطين العثمانيون في بورصة، بناه السلطان أورخان بن عثمان بعد فتح المدينة، وذلك ١٣٣٩ م، إن وجود المآذن والمحاريب في هذا البناء وغيره من المباني لا يعني أنه كان جامعا في الأصل لأننا طالما وجدنا كثيرا من المدارس العثمانية القديمة ذوات مآذن ومحاريب، ومثل هذا يصدق على بعض دور الشفاء في تركيا أيضًا.

ومن جوامع بورصة من هذا الطراز جامع السلطان (مراد الأول) الملقب (خداوندكار) الواقع في ضاحية (جرجكة)، ويتكون البناء من بهو كبير، في وسطه فسقية ماء من الرخام، تعلوها قبة كبيرة، وعلى جانبي البهو وفي الجهة القبلية منه إيوان كبير ترتفع أرضه عن أرض البهو بمقدار متر واحد، وفي وسط جداره القبلي محراب كبير، وهناك على جانب من البهو ثلاث قاعات، وعلى جانبي المدخل الكبير للبهو سلمان يؤديان إلى الطابق الثاني، وهذا الطابق يحتوي على عدد من القاعات والغرف يعتقد أنها كانت مدرجة، وفي واجهة البناء رواق مرتفع قائم على ست دعامات ضخمة تعلو إحداها مئذنة، وإلى الشمال من هذا البناء يقع مرقد السلطان خداوندكار وعليه قبة.

أما جامع (يلدرم بايزيد) فهو واقع على إحدى الروابي العالية في المدينة، وبالقرب منه مرقد السلطان بايزيد، وإلى الغرب من هذا المرقد مدرسة وهي الآن مستشفى، وهذا الجامع لا يختلف كثيرا من حيث

التخطيط والشكل عن جامع السلطان مراد الأول، ويعد (بشيل جامع) – الجامع الأخضر – من أجمل جوامع بورصة، يغطي جدران هذا الجامع الداخلية ألواح من القاشاني الأخضر، وقد اشتهر هذا الجامع بجمال زخرفته ودقة نقوشه، لا سيما مقصورة السلطان مُحَمَّد جلبي بن بايزيد الذي بنى هذا الجامع سنة ١٤١٩ م، ولهذا الجامع مئذنتان قائمتان على طرفي الواجهة الأمامية منه، أما المحراب فهو آية في دقة النحت والزخرفة.

وإلى الجنوب من هذا الجامع وعلى أرض مرتفعة شيد مرقد السلطان مُحَمَّد جلبي بشكل سداسي، تعلوه قبة عالية يمكن مشاهدته من جميع أطراف المدينة، وزينت جدران هذا المرقد من الداخل والخارج بالقاشاني الأخضر أيضا، وإلى الجهة الغربية من الجامع بنى السلطان مُحَمَّد مدرسة كبيرة ذات غرف متعددة ومصلى على الطراز السلجوقي، وقد اتخذ البناء الآن متحفا للآثار القديمة في المدينة.

فتح القسطنطينية:

بعد أن استقر العثمانيون في بورصة تحولوا في فتوحاتهم نحو الجانب الأوربي، فدحروا الصرب سنة ٧٨٦ هـ/ ١٢٨٢ م، وأخيرا تمكن السلطان (مُحَمَّد الفاتح) من الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين وذلك في سنة ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٢ م، وقد أصبحت القسطنطينية، التي سميت فيما بعد إسطنبول، مقرا للخلافة الإسلامية قرونا عديدة.

إن هذه المدينة يمكن تسميتها مدينة المساجد والجوامع، وفي متحفها (طوب قابو سراي) الذي كان دار الخلافة الأول، (الأمانة

المقدسة) المكونة من بردة الرسول (ص) وسيفه ومفاتيح الكعبة، وفيه أيضا أقدم نسخة من القرآن الكريم، كما نجد في المدينة قبر (أبي أيوب الأنصاري) حامل لواء النبي العظيم (ص)، انتقلت هذه الآثار المقدسة إلى الدولة العثمانية عندما انتقلت الخلافة إلى السلطان (سليم الأول) في أوائل القرن السادس عشر، فما كان من (شريف مكة) إلا أن بعث بتلك الأمانة المقدسة إلى السلطان اعترافا بخلافته.

جامع آيا صوفيا:

كان أول عمل قام به الأتراك العثمانيون عند احتلالهم للقسطنطينية ترميم كنيسة (آيا صوفيا) أو (سنت صوفيا) التي كانت بحالة يرثى لها من الدمار بسبب الزلزال الذي أصاب المدينة والحروب التي تعرضت لها عدة سنوات حتى هجرها المصلون وتهاوت أبوابها، أصلحها (مُحَمَّد الفاتح) وحولها إلى مسجد وأقام مئذنة من الخشب للمسجد، ثم بنيت مئذنتان من الحجر على طرفي واجهة القبلة بعد ذلك، ثم الثالثة والرابعة في مختلف الأدوار، ولا تزال هذه المآذن الأربعة تحتفظ بجمال تصميمها وروعة هندستها.

وقد تحول هذا الجامع إلى متحف في العهد الجمهوري، فأتاح الرئيس (مصطفى كمال) للمسلمين وغيرهم على السواء فرصة زيارة هذا الأثر التاريخي بعد الكشف على الفسيفساء الجميل الذي كان يغطي الجدران الداخلية.

بنى هذه الكنيسة الفخمة الملك (جوستنيان) عام ٥٣١ م، واسم (آيا صوفيا) مشتق من (آيا) بمعنى (الإلهي) و(صوفيا) بمعنى (الحكمة) فيكون الاسم (الحكمة الإلهية)، إن قوام هذا البناء صالة مركزية كبيرة تغطيها قبة عالية قائمة على عقود كبيرة، طول قطرها ٣١ مترا، وتمتد هذه الصالة من الأمام والخلف بواسطة جناحين عليهما نصفا قبتين بنفس العرض، وعلى الجانبين الآخرين جناحان آخران يعلوان مجموعتين من الأقواس، ويهيمن على طول الواجهة دهليز كان فيما مضى ينفتح على صحن واسع ذي أروقة.

أقدم المساجد في إسطنبول:

إن الأبنية التي أقامها العثمانيون في بادئ الأمر كان بغلب عليها البساطة والتواضع، وكان تأثير الطراز السلجوقي ظاهرا فيها، وقد استمر المعماريون الأتراك خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر على إخلاصهم لهذا الطراز، فكانت مخططات بعض المساجد الأولى مثل (مسجد مُحَمَّد باشا) الذي بني عام ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤م، و(مسجد على باشا) ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧ م، لا تحمل تقدما ملحوظا يختلف عن مخطط المساجد التي بنيت في مدينة بورصة.

وقبل أن يمر وقت طويل على الطراز التركي المتواضع أخذ العثمانيون في إنشاء المساجد والجوامع الكبيرة التي فيها الكثير من البذخ الفنى بأسلوب فريد مبتكر، ففي فجر القرن السادس عشر ظهر طراز تركي جديد يكاد يكون مستوحى مباشرة من الطراز البيزنطي الذي بقيت

كنيسة (سنت صوفيا) نموذجه الرائع بلا منازع، وكانت هذه الكنيسة مصدر وحي للمعمار (كمال الدين) الذي أنشأ بعض المساجد في اسطنبول أشهرها (مسجد بايزيد) الذي تم إنشاؤه عام ١٥٠١ م.

لقد حاول المهندس كمال الدين أن يطبق نفس الأسس التي وجدها في العمارة البيزنطية مع بعض التغيير بحيث يجعل البناء ملائما مع العبادة الإسلامية، فقد استغنى عن الأعمدة التي تحمل القبة الكبيرة المركزية ولنصفي القبتين الجانبيتين حتى يتسنى للنصفين الواقفين في الأروقة الجانبية مشاهدة الإمام الواقف في المحراب.

جامع السليمانية:

بنى هذا الجامع السلطان سليمان ٩٥٩ هـ/ ١٥٥٠ م، وقد ظهر حينذاك في تركيا المعمار الفنان (سنان) الألباني الذي ينسب اليه بناء أكثر من ثلاثمائة وثلاثة وأربعين بناء، وهذه الأبنية وإن لم تكن نظائر لأيا صوفيا فهي تطبيق معقول لأسلوبها، فيه الشئ الكثير من التجديد للطراز البيزنطي حينما يضطلع بواجب جديد، فجامع السلمانية هو تعبير صارخ للطراز للطراز المعماري التركي المهيب، وهو أقرب ما يكون للأبنية التذكارية، الـ (مونيومنتال).

إن مثل هذا التأثير غير موجود في ظاهر بناية (أيا صوفيا)، وفضلا عن ذلك فإن جامع السلمانية بباحاته الواسعة المشجرة، ومدرسته، ودار الشفاء التابعة له، وبنايات الأضرحة الملحقة به تكون جميعها مجموعة

مسمارية واسعة، رتبت بشكل منسق مقبول، أقرب في ترتيبها لمدينة جامعية بكل معنى الكلمة.

لقد أصبح هذا الجامع نموذجا رائعا لعدد كبير من المساجد، ففي هذا المسجد نشاهد أيضا القبة المركزية ونصفي القبتين الأمامية والخلفية، ولكنهما لا يتوجان نصفي دائرتين كما هو الأمر في أيا صوفيا مما يفرغ الصالة من الركائز والأعمدة التي نزخر بها الكنيسة المذكورة، أما الرواقان الجانبيان فهما مغطيان بقباب صغيرة تساير القلب فيأخذ المسجد شكلاً عرضياً أكثر منه طولياً، وهناك عضائد ضخمة للدعم تبطل فعل دفع القباب.

جامع آدرنة:

أبدع المهندسون (سنان) أيضا في بناء جامع مدينة (آدرنة)، فقد بناه السلطان (سليم الثاني) ١٥٧٠ – ١٥٧٤ م، وكان قبل ذلك قد سيد جامع (شاه زاده) في اسطنبول، ففي جامع آدرنة تقوم القبة التي هي باتساع قبة آيا صوفيا على ثمان دعائم في إثنى عشر ضلعًا، وجعل للجامع شرفات عديدة فوق أعمدة تحيط بها منصات، وتحيط بالجامع أربعة مآذن متناسبة، ويتقدم الجامع صحن واسع تتوسطه فسقية ماء، وقد اعتقد سنان أنه بلغ القمة عندما أكمل بناء هذا الجامع، وأنه لا يمكن أن ينتج أحسن منه.

جامع السلطان أحمد:

يعتبر جامع السلطان أحمد في اسطنبول، الذي شيد عام ١٠١٧ – ١٠٢٣ هـ/ ١٦٠٨ – ١٦١٤ م، مثالا لمتانة ورصانة البناء، بالإضافة إلى تناسق الأبعاد فيه، وكان هذا آخر عمل لسنان، يقع هذا الجامع بالقرب من آيا صوفيا على الجانب الآخر من الميدان الفسيح الذي تتوسطه نافورة كبيرة. وقد أراد السلطان أحمد أن يتحدى جوستنيان في بنائه، وللجامع فناء كبير فيه خمسة أبواب، أما الحرم فيمكن الدخول إليه من أبواب ثلاثة، والمسجد من الداخل مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ٥١ مترا تقريبا، ويصل ارتفاع قبته، التي يبلغ قطرها ٢٢ مترا، إلى ٤٣ مترا، زينت جدران الجامع الداخلية بالنقوش التركية والآيات القرأنية، وفيه سمي الجامع بـ (الجامع الزرق) لزرقة ألوان السيراميك المزخرف الذي يغطي جدرانه والنقوش الزرقاء التي تغطي الأقواس والقبة.

تستند قبة الجامع على أربعة دعائم مضلعة أشبه بالأعمدة الضخمة، وللجامع ست مآذن ممشوقة كلها مبنية بالحجر، وقد اقتبس المعمار (خواجه قاسم) الشئ الكثير من طراز هذا الجامع عند بناء (مسجد بني والده جامعي) سنة ٩٩٨ هـ/ ١٦٥١ م، وكان يلحق بالجامع أضرحة للسلاطين وعوائلهم وملحقات أخرى كالمكتبات وصفوف التدريس، وحمامات وحوانيت ومطاعم للفقراء، ومستشفيات، وغرف لمنام الغرباء.

العراق في العهد العثماني:

احتل الأتراك العثمانيون العراق سنة ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م، ودخل السلطان (سليمان القانوني) بغداد وطرد البشوات الذين بعثهم السلطان من اسطنبول كولاة على بغداد والموصل والبصرة، وقد شيد بعض الولاة جوامع في بغداد لا تزال قائمة إلى اليوم أهمها:

جامع المرادية:

من أشهر الولاة الوالي (مراد باشا) ٩٧٢ هـ/ ١٥٦١ م، الذي خلد عهده اليوم (جامع المرادية) الذي يقع قرب باب المعظم مقابل بناية وزارة الدفاع على شارع الرشيد، ويعتقد بعض المؤرخين أن إنشاء هذا الجامع من المحتمل أن يكون في موضع المدرسة الشرابية العباسية، ولهذا الجامع مئذنة مزخرفة بالقاشاني زخرفة فائقة وعلى الحرم قبة كبيرة منبسطة.

جامع الشيخ عبد القادر الجيلي:

من ولاة بغداد (الوند زاده علي باشا) ٩٨٢ هـ/ ١٥٧١ م، الذي قام بإعادة بناء قسم من ضريح الشيخ عبد القادر الجيلي وبنى مضيفا للزوار، وكان على الضريح ميل أمر السلطان سليمان بهدمه وبناء قبة شاهقة عليه، وبعده أسس سنان باشا بحذاء القبة جامعا ولم يتفق له إكماله، وبعد مضي سنوات أكمله والي بغداد (علي باشا بن الوند)، ثم ألحق رواقين أحدهما من جانب الغرب بحذاء الجامع والآخر من جانب الشرق محاذيا لقبة الضريح.

جامع الوزير:

بنى الوالي حسن باشا ١٠٠٦ هـ/ ١٥٩٧ م جامع الوزير على رأس الجسر العتيق، ويعتقد أن هذا الجامع أنشئ في موضع المدرسة (التتشية الحنفية) التي بناها الأمير المملوك (خمارتكين التتشى) في أواخر القرن الخامس الهجري، وقد جددت عمارته عدة مرات ولم يبق من بنائه القديم سوى مئذنته.

وفي عهد الوالي (يوسف باشا) ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦ م، استولى الشاه (عباس الأول) الصفوي على بغداد (١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٢ م) ودام حكم الفرس لبغداد خمس عشرة سنة، وبعد وفاة الشاه عباس تقدم السلطان (مراد الرابع) العثماني إلى بغداد وفتحها وبهذا بدأ العصر الثاني لحكم العثمانيين للعراق، وبنيت مساجد أيضا منها.

جامع الخاصكي:

بنى الوالي (محمد الخاصكي) ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٦ م، جامعا اسمه اليوم في بغداد بـ (جامع الخاصكي) القائم في محلة رأس القرية، وكان في هذا الجامع محراب جميل جدا من الرخام الرائع النحت يعتقد أنه محراب جامع المنصور في المدينة المدورة، وقد نقل إلى المتحف العراقي في بغداد.

جامع حسين باشا:

اشتهر من ولاة بغداد (سلاحدار حسين باشا) ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨ م، بالعمارة أيضاً، فقد شيد في بغداد سوق جديدة قرب

المستنصرية، ثم أخذت هذه السوق في أن تكون قلب الحياة التجارية للمدينة وسور مرقد الشيخ عمر السهروردي بسور جديد، وبنى جامع جديد باسم (جامع حسين باشا) على قبر أحد الأولياء (الشيخ إبراهيم الفضل)، ويقع هذا الجامع في محلة الحيدرخانة، وهو واسع المصلى وله مئذنة مطلة على الطريق من الجهة الغربية.

جامع القبلانية وجامع السيد سلطان علي:

تولى ولاية بغداد (قبلان مصطفى باشا) في سنة ١٠٨٧ هـ/ ١٦٧٦ م، وبنى (المسجد القبلاني) بجوار المدرسة المستنصرية، وبنى الوالي (إبراهيم باشا) ١٠٩٢ هـ/ ١٦٨١ م، (جامع السيد سلطان علي) الواقع على ضفة نهر دجلة اليسرى، والسيد سلطان علي من المشايخ العظام والسادات الكرام.

جامع جديد حسن باشا:

بنى هذا الجامع الوالي (حسن باشا) ١١١٦ هـ/ ١٧٠٤ م، ويعرف هذا الجامع بـ (جديد حسن باشا) ويقع هذا الجامع مقابل دار الحكومة (السراي) وعلى مصلاه قباب رفيعة معقودة بالجص والآجر، وأمام المصلى رواق واسع وقد تم تجديد بنائه من قبل وزارة الأوقاف.

جامع الأحمدية:

تولى الولاية الوالي (سليمان باشا بيوك) سنة ١١٩٥ هـ/ ١٧٨٠ م، وكان نائبه (أحمد الكهية)، واسم أحمد اليوم مخلد ببغداد بـ (الجامع

الأحمدي) الكبير في الميدان، على مصلى هذا الجامع قبة شامخة في الهواء بديعة الشكل معطاة بالقاشاني المزخرف بالألوان البديعة، قائمة بجنبها مئذنة مزخرفة بالقاشاني أيضا، وعندما قتل أحمد باشا قام بإكمال البناء أخوه (عبد الملك بك) سنة ١٢١١ هـ/ ١٨٧٢ م.

جامع الحيدرخانة:

دام حكم الوالي (داود باشا) أربع عشرة سنة، تولى الحكم سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م، أضاف إلى بغداد بنايات عامة كثيرة، وباهى البغداديون بسرار يضاهي من حيث العظمة أي سراي عرفوه في اسطنبول، وقام هذا الوالي بتأسيس (جامع الحيدرخانة) المطل على شارع الرشيد من الجهة الشرقية، ولهذا الجامع قبة عالية مغطاة بالقاشاني المزخرف الجميل الألوان وبجانبها مئذنة عالية مزخرفة بالقاشاني أيضا، وبنى هذا الوالي جامع (اليوزبكي).

جامع ومرقد الإمام أبي حنيفة:

عندما فتح السلطان مراد الرابع بغداد أمر بإعادة بناء هذا الجامع وبنى قبة فخمة فوق الضريح وفي سنة ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١ م، وفاءً لنذر أم السلطان (عبد العزيز) صدر الأمر السلطاني ببناء الجامع وتوسيعه، وبنيت قبة كبيرة على مصلاه قائمة على أعمدة رخامية وحوله رواقان في الجهة الشرقية والشمالية، يجرى الآن توسيع حرم الجامع توسيعاً كبيراً في الوقت الحاضر.

المدرسة المغولية

العراق في العهد المغولي الإيلخانيين

جامع مرجان:

كان الخواجة (أمين الدين مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن) الأولجايتي واليا على بغداد على عهد (أويس بن السلطان أولجايتو) مؤسس الدولة الجلايرية في العراق سنة ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٨م،

ساس مرجان المملكة أحسن سياسة، ونشر العدل، وأمن السبل، وبنى العمارات، فخلد ما خلده من عمل الخير والإحسان حتى وفاته سنة ٧٧٤ هـ، ودامت إمارته لبغداد ست سنوات.

قام مرجان في بناء مدرسته في بغداد التي جاءت لتحل محل المدرسة النظامية التي مضى عليها ثلاثة قرون فتداعت وصارت أثرا بعد عين، بنيت مدرسة مرجان على أسس متينة رصينة ولكنها أصغر من المدرسة المستنصرية، وإن كانت منسقة وذات هندسة جميلة، ومربعة الشكل عدا زاويتها الشمالية التي كانت مبتورة، تقع هذه المدرسة أو الجامع في منتصف شارع الرشيد في بغداد تقريبا، ولهذه المدرسة باب عالية كباب المستنصرية مزخرفة بالزخاريف الآجرية المخرمة الجميلة، والمكونة من أشكال هندسية مختلفة الأنواع والحجوم، والقليل منها يكون من أزهار،

إن هذه الزخرفة جعلت هذا البناء في المنزلة الأولى من حيث العمارة الإسلامية بين المباني الآثرية.

وتقع على يسار مدخل المدرسة مئذنة الجامع الخالية من الزخرفة، وكان البناء مكونا من طابقين يصعد إليها من أربعة سلالم تقوم في زواياها، وقد خصصت الطبقة العليا للتدريس، وكان على الجهة اليمنى من المدخل مدرسة القرآن، وكان للجامع محراب في غاية الجمال والدقة والإبداع الزخرفة، ومن المؤسف أن قامت أمانة العاصمة في هدم القسم الأعظم من هذه المدرسة لغرض تعديل استقامة شارع الرشيد، وقد شيدت الأوقاف مسجدا حديثا بثلاث قباب أوسطها تشابه قبة المدرسة القديمة، ويقع قبر مرجان وقبر العلامة نعمان الأواسي في ساحة المسجد الجديد الآن.

خان مرجان:

هذا الخان من أوقاف جامع ومدرسة مرجان، ويقع الخان في شوارع السموأل اليوم مقابل مدرسة مرجان، وهو خان فخم البناء فريد الطراز، وكان يسمى (خان الاورتمة) أي الخان المغطى المستور باللغة التركية وذلك لوجود العقادة التي تغطى ساحة الخان، وهذا النوع من العقادة فريدة من نوعه لوجود فتحات للنوافذ على جانبي العقادة.

لقد تم إنشاء الخان في سنة ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٨ م، وذلك في عهد ثاني سلاطين الجلائريين (أويس ين الشيخ علي)، وكان الخان للسكنى وسوقا للتجار يبيعون ويشترون فيه، وقد جعله مرجان وقفا على مدرسته وجامعه كما أوقف عليها الكثير من الموقوفات من بساتين ومسقفات

وغيرها، ولهذا الخان بابان: أحدهما يشرع إلى (سوق الثلاثاء) العباسي القديم (سوق البزازين) اليوم، والآخر إلى سور دار الخلافة العباسية المعروف اليوم بشارع السموأل، وعلى الباب الأول كتابة بالآجر تشير إلى كون هذا الخان وغيره من المباني وقفا على مدرسة مرجان.

إيران في العهد المغولي

تولى هولاكو حكم بلاد فارس سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٥م، وعرفت دولته بدولة (الإيلخانية)، ثم اجتاحت البلاد موجة مغولية أخرى بقيادة (تيمورلنك)،

أعمل المغول السيف لرقاب الشعوب المغلوبة ولم ينج من الموت إلا بعض المهرة من الصناع وأصحاب الحرف البارزين، وقد تجمع هؤلاء في عاصمة المغول الجديدة (تبريز)، فصارت مركز الثقافة والفن في الشرق الأوسط وقد مثل ملوكهم دور المتحمسين للإسلام، ونصبوا أنفسهم رعاة لأصحاب العلم والفن فخلفو لنا عمارات أكثرها قبور ملكية ومساجد، تدل على بهاء وذوق في الهندسة والفن.

فمن المدافن المغولية المشهورة مدفن (الأمير الجايتو) في مدينة (سلطانية) الذي تم بناؤه سنة ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٩م، ويتكون من حجرة مربعة طول كل ضلع ٢٤.٤٠ مترا، يلحق بها مصلى، وخطط المدفن من الداخل مثمن يحيط بها أربعة أكتاف غليظة، وفي الوسط ترتفع قبة ذات مقطع كالقوس المنكسر، وظاهر هذه القبة مغطى بالخزف الفيروزي، وبالرغم من الدمار الشديد الذي أصاب هذا البناء فإنه يعتبر من أنجح ما ظهر في ذلك العهد.

وفي مدينة طوس القديمة في خراسان مدفن كبير يعتبر – خطأً –

قبر الخليفة (هارون الرشيد)، ولكن طراز بنائه وخصائصه المعمارية تقربه من مدفن السلطانية المغولي، فقاعدة هذا المدفن مزينة بفجوات، وتعلو الأركان أبراج، وهو بناء مربع التخطيط تعلوه قبة ذات تروس متداخلة.

وفي سمرقند يعد مدفن (غور أمير) أروع مدفن أقيم سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م، ليضم (تيمورلنك) يتألف هذا البناء من إيوان بمثابة بوابة ينفتح على ساحة مشجرة تتقدم القبر الذي كان يؤدي إلى إيوان ثان، وفوق قاعدة مثمنة تقوم كتلة أسطوانية فوقها قبة مقرنصة منفتحة قليلا مكسوة كلها بالخزف الأزرق الذهبي، وتنهض القبة الخارجية على ارتفاع عشرة أمتار فوق ذروة القبة الداخلية، والفراغ الحاصل بين القبتين مقسم بواسطة حواجز ودعائم خشبية تحول دون تفكك القبة الخارجية.

مسجد فيرامين:

تقع مدينة (فيرامين) في جنوب طهران، وقد شيد مسجدها الكبير الملك المغولي (أبو سعيد) سنة ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٢ م، إن هذا المسجد يدل دلالة واضحة على عدم انقطاع العصر المغولي عن العصر السلجوقي في طراز بناء المساجد، فلهذا المسجد بوابة بشكل إيوان تؤدي إلى الصحن، ويحيط بهذا الصحن أقواس الأروقة الأربعة، وفي وسط كل منها إيوان، والإيوان القبلي أكثر ارتفاعا من الجانبين، وهو يشكل المدخل الفخم للحرم، ويتألف من قاعة واسعة ذات قبة تكتنفها أروقة مغطاة بقبوات نصف أسطوانية، وهذه الأروقة تمد أروقة الصحن الجانبية حتى تصل إلى الجدار القبلي، وترتكز القبة على عنق مربع بواسطة أركان ذات محاريب

متطابقة فوق بعضها.

جامع جوهر شاد:

في مدينة هيرات بخراسان شيدت إحدى الأميرات التيموريات سنة ٨٣٢ هـ/ ١٤١٨ م، جامع (جوهر شاد)، وهذا الجامع يشغل أرضا مربعة الشكل تقريبا، كل ضلع فيها ٩٠ مترا، وصحن الجامع مربع أيضا، وهو محاط .

إيران في العهد الصفوي:

شهد العالم الإسلامي – بعد تفككه بسبب غزوات المغول عليه – تنظيما جديدا، وانقسم إلى عالمين: العالم الإيراني والعالم التركي؛ ففي عام ٩٣١ هـ/ ١٥١٤ م، أسس الشاه إسماعيل الأسرة الصفوية التي حكمت في بلاد فارس حتى سنة ١١٥٠ هـ/ ١٧٣٦ م، بينما امتدت السلطنة العثمانية على جميع البلاد العربية إلى أن بلغت حدود المغرب، لقد جعل الشاه إسماعيل مقره في تبريز ثم تحول إلى قزوين، وبعد ذلك إلى أصفهان في أواخر القرن السادس عشر، وهذا العصر يعد العصر الذهبي لإيران.

تركز عمل الشاه عباس العمراني في عاصمته أصفهان، فأنشأ فيها القصور والمساجد والجسور وجعل للمدينة شارعا عريضا يمتد من الشمال إلى الجنوب بطول ثلاثة كيلو مترات، مظللا بالأشجار ومحاطا بالحدائق والبرك المائية وأماكن الراحة. ويقطع هذا الشارع نهر زندرهود على جسر الله ويردى المؤلف من ٣٣ قنطرة، وفوقه طريق على جانبيه ممران مسقوفان

للمارة ، وهناك جسران آخران يؤديان إلى جولفا الريض الجنوبي للضفة الشمالية حيث تمتد المدينة.

وجعل الشاه عباس للمدينة ساحة ملكية (ميدان شاه) مستطيلة الشكل طولها ٥١٢ مترا، وعرضها ١٥٠ مترا، محاطة بقناة وبصف من الأشجار، وتحيط بالساحة بعد ذلك بيوت ذات شكل موحد، تتفتح فيها دكاكين، ويقطع هذا الترتيب منشآت مختلفة، فمن الجنوب المسجد الشاهي، ومن الشمال منصة الجوفة الموسيقية وتعلو مدخلا ينفذ من خلاله إلى سوق القيصرية الكبير، وفي الغرب تبدو الاستراحة التي يطلق عليها اسم (الأكابي) وهي مدخل الحدائق والقصر، وفي الشرق مسجد الشيخ لطف الله، هذا وقد أصبحت أصفهان في هذا العقد من أجمل مدن الشرق وصارت تسمى (أصفهان نصف جهان).

(مسجد شاه) في أصفهان:

شرع الشاه عباس في بناء هذا المسجد سنة ١٠٢١ هـ/ ١٦١٢ م، ويبلغ طول المسجد ١٤٦ مترا وعرضه ٤٨ مترا، وارتفاع مئذنته ٥٢ مترا، وتقوم بوابة المسجد ضمن إيوان يشرف على الصحن، وتقع على جانبيها منارتان، وتقوم ثلاثة أواوين أخرى على الطرفين، وفي صدر الصحن تتقدم قاعات ذات قباب، ويسبق الحرم إيوان على جانبيه أربعة أروقة مسقوفة بمجموعة من القباب الصغيرة ومهما تكن روعة الزخرفة القاشانية في هذا المسجد فإن طراز بنائه لم يقدم تجديد للشكل المعروف سابقا في بلاد فارس.

مسجد الشيخ لطف الله:

بنى هذا المسجد الشاه عباس أيضا إكراما للشيخ لطف الله الذي قدم إلى أصفهان من إحدى قرى جبل عامر في لبنان، فشرع في بنائه عام ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٢ م، ويبلغ ارتفاع قبته نحو ٤٢ مترا، وقد أجاد الفنانون في زخرفة جدرانه ومحرابه بالرخام والفسيفساء البديعة، وقد أصبح المسجد الآن متحفا يدخله الزائرون على اختلاف أديانهم.

جامع الشيخ صفي:

إن أقدم الأبنية الدينية التي ترجع الى العهد الصفوي هو جامع الشيخ صفي في أردبيل، يعلو هذا الجامع قبة عظيمة، وتكسو جدرانه ألواح من الخشب بها طاقات أعدت لوضع الذور معظمها من الخزف، ولهذا عرف بصيني خانه، وقد تغير وضع هذا الجامع وأصبح مسجدا ضريحا في القرن السادس عشر، ولهذا المسجد ميدان فسيح على هيئة صحن، في نهايته مجموعة من المباني ولكنها بوضع مائل، وتبلغ مساحة الصحن الداخلي للجامع ٣١×١٦ مترا، وإلى يسار الجامع جامع آخر أقدم منه وهو فريد من نوعه، مثمن الأضلاع، يقوم على ١٦ عمودا خشبيا، وبه نوافذ مجوفة، وليس له محراب لوقوع القبلة في اتجاه المدخل، وفي ركنه الأيمن يقوم ضريح مؤلف من مقام صغير، ومصلى ذو حنايا قائمة الزاوايا، من طبقتين وواجهته مبنية بالآجر ولها باب مرتفعة ذات عقود مدببة.

بناء الأماكن المقدسة:

قام الشاه إسماعيل ببناء تربة السيدة فاطمة بنت الإمام موسى الكاظم، ولهذا المرقد قبة فخمة ومدخل جميل النقوش، على طرفيه مئذنتان. واستعمل لتغطية القبة ١٢ ألف قرميدة مطلية بالذهب، وأما المنارتان فقد بنيت سنة ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٦ م، والبناء كله منسجم الأبعاد، وللقاشاني المكانة الأولى في تجميل البناء، وقد تجلت الروعة في إطارات النوافذ وإفريز المقرنصات في واجهة الفناء وقبة المحراب.

وتعد مدينة مشهد الواقعة بخراسان من البقاع المقدسة لوجود مرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع) فيها، وهذا المرقد تعلوه قبة فخمة مكسوة بالقرميد المذهب، ويلتصق به جنوبا مسجد كوهر شاد الكبير، ومن الجنوب الشرقي المتحف وبقعة الشيخ مُحَّد بن الحسين المعروف بالشيخ البهائي العاملي، ومن جهة الغرب مدرسة بريزاد ومدرسة الأسر.

مدرسة جيهار باغ:

يعود تاريخ هذه المدرسة إلى العهد الصفوي، وتحتوي على ١٣٤ غرفة، وتبلغ مساحتها ٨٥٠٠ مترا مربعا، وفيها محاريب عديدة، وطوق مختلفة كما توجد فيها مقرنصات غاية في الإبداع والأناقة.. وللمدرسة منائر جميلة يبلغ ارتفاعها حوالى ٣٨ مترا، ويعد المحراب الواقع تحت القبة الرئيسية للمدرسة من أجمل المحاريب الموجودة في إيران.

قصر جيهل ستون:

بنى هذا القصر الشاه عباس، وهو يقوم على سطح أمامه بركة واسعة من الماء طولها ١٠٠ مترا، وعرضها ١٥ مترا، ويرتكز سقف (الطلار) على عشرين عمودا خشبيا تعكسها صفحة الماء في البركة فتبدو مضاعفة أي أربعين عمودا، ولذلك سمي جيهل ستون، ويقوم في صدر المكان إيوان يتطاول هو نفسه بحنية أخرى حيث يقام عرش الشاه، وهناك في القسم الخلفي من القصر قاعة فسيحة ذات ثلاث قباب تتصل بباحات ذات أروقة تطل جانبيا على حديقة بديعة التنسيق فيها أنواع الأشجار والرياحين.

المدرسة الهندية المغولية

فتح بلاد الهند:

دخل العرب الهند سنة ٩١ هـ/ ٧٠٩ م تحت قيادة الفاتح العربي العظيم (مُحَمَّد بن القاسم)، وذلك في عهد الخليفة الأموي (الوليد بن عبد الملك)،

وبعد أن نزلها جيوشهم أمام مدينة كراجى (الدبيل) أخذوا بالتقدم وساروا بحذاء نهر السند حتى أشرفوا على وادي البنجاب، ثم توالت الفتوحات الإسلامية، بعد ذلك، وأخذت تتوسع داخل الهند شيئاً فشيئا.

الدولة الغزنوية:

ظهر الغزنويون في بداية القرن الحادي عشر الميلادي، وهم فرقة من التركمان، وإن كانوا ينسبون إلى مدينة (غزنة)، وكان زعيمهم (البتكين) واليا على مقاطعة خراسان من قبل السامانيين الذين كانوا سلاطين في إيران، ثم رحل البنكين إلى غزنة واتخذها هو ورجاله موطنا لهم، ومن هنا امتد نفوذه على بعض نواحي الهند، وبعده جاء (سيكتكين) وأخذ يتوسع في فتوحاته في الهند.

اشتهر ابنه (محمود الغزنوي) وكان أعظم شخصية بين الغزنويين، وقد لقبه الخليفة القادر العباسي بـ (يمين الدولة وأمين الملة) لحماسه الكبير في نشر الإسلام في الهند والقضاء على الوثنية فيها، حيث استطاع أن

يهدم أعظم معبد لصنمهم المشهور (سومنات) ويجعل منه قطعة بنائية وعتبة مسجده في غزنة، وفي زمانه اشتهر الشاعر الفارسي (الفردوسي) صاحب (الشاهنامة)، وعندما توفي محمود الغزنوي (٤٣١ هـ/ ١٠٣٠ م)، دفن في غزنة، وله ضريح فيها أشبه بقبور السلاجقة ذات الأضلاع المتمددة.

الغوريون – دولة المماليك – المغول:

استمر المسلمون في فتح أقسام أخرى من الهند في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي بواسطة (الغوريون) وهم أمراء إيرانيون في أفغانستان، ففي مستهل القرن الثالث عشر الميلادي ٦٠٢ هـ، قامت في الهند (دولة المماليك) على يد السلطان (قطب الدين أيبك)، واستمرت هذه الدولة في الحكم إلى سنة ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٨ م، ثم ظهرت بعد ذلك (الدولة المغولية) في الهند في زمن (ظهير الدين بابر) في مستهل القرن السادس عشر الميلادي، وأخيرا سقطت الدولة الإسلامية في الهند على يد الإنكليز في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي.

العمارة الهندية الإسلامية

اتخذ المسلمون في الهند في بادئ الأمر بعض الأبنية القديمة مساجد لهم وحوروها لهذا الغرض، ثم تبع ذلك كله نشاط في الإعمار والإنشاء،

فعندما استقر الغزنويون في الهند بدأوا في تشييد المساجد والجوامع، واستفادوا من المواد الإنشائية الكثيرة التي وجدوها في المعابد الهندية لبناء هذه المساجد بعد تحويرها ووضعها في قالب يلائم أغراض تلك المساجد، وكان لوجود عدد كبير من المعماريين والصناع المهرة أثر كبير لقيام نهضة معمارية إسلامية كبيرة في الهند.

قام الغوريون، أمراء دلهي، بتشييد أولى المنشآت الإسلامية المهمة، ولكن هذه المنشآت اكتسبت الشئ الكبير من طراز العمارة الهندوكية القديمة ولا سيما أسلوب (جانيا) الذي ازدهر في (راجبوتانا) الواقعة بين نهري الفانج والهندوس.

وكانت معابد جانيا هذه مبنية بالحجر الأحمر وذات عدد وافر من الأبراج وغابة من المسلات يبدو شكلها مقعرا في القمة، وتسيطر في الداخل زخرفة وافرة من المنحوتات الرخامية، وتحمل الأعمدة ذات النقوش النافرة التي تمثل أشخاصا القباب المشكلة من بلاطات طويلة متكاثفة تغطي الصالات بمساندها المتتابعة.

مسجد (قوة الإسلام):

يعد هذا المسجد من أقدم المساجد في الهند، قام بتشييده (قطب الدين أيبك) بعد استيلائه على دلهي، وقد باشر في بنائه سنة ٥٩٠ هـ/ ١١٩٣ م، وانتهى منه سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ م، ولأجل بنائه هدم قطب الدين أكثر من ٢٧ معبدا هنديا، واستخدم موادها الإنشائية في بناء المسجد.

ولمسجد قوة الإسلام فناء واسع مستطيل طوله ٤٣.٢٠ مترا وعرضه ٣٣ مترا، تحيط به أروقة مشيدة على أعمدة أخذت من المعابد الهندية القديمة، وكان الجانب الشرقي من فناء الجامع موضع إحدى المعابد المهدمة، وعلى طريق الرواق الشرقي مصلى خاص للنساء، وأمام بهو الصلاة يرتفع عمود من الحديد كان قائما في (معبد فشنو) الهندي الذي يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي.

وتتكون واجهة المصلى من طاق وسطي عرضه ٦.٧٠ مترا وارتفاعه ١٦ مترا، وعلى جانبيه طاقان أقل عرضا وارتفاعا من الطاق الوسطي، وقد زينت واجهة هذه الطوق بزخارف جميلة فيها التأثير الهندي راضخ وجلي، وقد قام بتوسيع مسجد قوة الإسلام (شمس الدين التتمش) ٦٠٧ – ٦٣٢ هـ/ ١٢١٠ – ١٢٣٥ م ، وهو صهر وخليفة قطب الدين، وذلك بمد الأروقة وبيت الصلاة إلى خارج السور الأصلي للمسجد حتى أصبحت (مئذنة قطب) داخل سور المسجد الجديد، ثم توسع المسجد في زمن (علاء الدين خلجي) ٦٩٧ – ٧٢٦ هـ/ ١٢٩٦ –

١٣١٦ م ، فبنى هذا مدخلين في الضلع الشرقي الطويل من سور المسجد، وجعل في كل من الضلعين الشمالي والجنوبي مدخلا واحدا، ويعرف المدخل الواقع في الضلع الجنوبي بـ (علي دروازه)، وهكذا تضاعفت في زمنه مساحة المسجد، وشرع في بناء منارة أخرى وحاول أن يجعلها ضعف حجم منارة قطب ولكنه لم يتمكن من إكمال بنائها.

مئذنة قطب:

وضع أساس هذه المنارة التي ذاعت شهرتها في العالم (قطب الدين أيبك)، وقد يكون القصد منها أن تكون رمزا لانتصاراته الحربية الباهرة وفي نفس الوقت مئذنة لمسجد قوة الإسلام الكبير، ومن المحتمل أنه لم يتجاوز في بنائه أكثر من الطابق الأول للمنارة وترك الباقي ليكمله صهره وخليفته (التتمش)، ثم قام كل من (فيروز نفلق) ٧٥٢ – ٧٩١ هـ/ ١٣٥١ – ١٣٨٨م، و(إسكندر لودي) ٨٩٥ – ٩٢٤ هـ/ ١٤٨٩ – ١٥١٧ م ، بتعمير وإصلاح هذه المنارة فيما بعد.

بنيت المنارة بالحجر الأحمر المنجور والحجر الرملي، وعندما تهدم القسم الأعلى منها بسبب صاعقة وقعت عليه سنة ٧٨٠ هـ/ ١٣٧٨ م، زاد فيروز طابقين آخرين للمنارة فصارت بخمسة طوابق، واستعمل الرخام في البناء، إن لكل من الطوابق الثلاثة الأولى تصميم خاص به، فالطابق الأسفل مكون من أضلاع مستديرة تليها أضلاع ذات زوايا، والطابق الثاني أضلاعه مستديرة فقط، والطابق الثالث ذات زوايا فقط، ولكن التخطيط يمتد في الطوابق الثلاثة، إن لكل طابق شرفة تبرز فوق مقرنصات

منحوتة من الحجارة دقيق الصنعة، وفيها أشرطة مكتوبة لها فعل الزينة البنائية.

يبلغ قطر المنارة ١٤.٣٢ مترا، وتنتهي المنارة بقطر مقداره ٢.٧٥ مترا، والارتفاع الكلي للمنارة ٧٢.٥٠ مترا، وعدد الدرجات ٢٧٩ درجة وهي أعلى الأبراج المبنية في الهند، وقد تهدم رأس المنارة بسبب إحدى الزلازل فأعاد أحد المهندسين الإنكليز بناءه بصورة لا تتفق مع طراز البناء الأصلي، ولذا رفع هذا الرأس منها.

العمارة في العهد المغولي

عهد بابر همايون:

يبدأ فن العمارة المغولية في الهند بانهزام (إبراهيم اللودي) وتبوأ (بابر) أحد أعقاب تيمورلنك عرش الدولة وتأسيس حكم السلالة المغولية في الهند،

وكان بابر بنَّاء نشطاً وإن ما تم في عهده من أعمال البناء والتعمير كالمساجد والقصور والحدائق كان نموذجا لفن العمارة المغولية، وقد اكتمل هذا الفن بعهد يمتد من الإمبراطور (أكبر) إلى (شاهجان)، وقد بدت آثارهم العمرانية في سمرقند وبخارى وهرات، وكانت دلهي عاصمة الهند متجهة نحو الضعف والاضمحلال قبل مجئ المغول بسبب الاضطرابات السياسية، ولذا اتجهت النهضة العمرانية منها إلى الولايات الأخرى

لم يتمكن بابر من تحقيق أمور كثيرة عزم عليها وأحلام راودته كثيرا، ومع ذلك فإن عهده لا يخلو من تشييد العمارات والقصور والمساجد والحدائق، وبعد وفاته قام ابنه (همايون) سنة **٩٣٧** هـ/ **١٥٣٠** م، بتحقيق أحلام والده الكثيرة، وبالرغم من الارتباك والاضطراب الذي عاش فيه همايون لم يأل جهدا في تخليد مآثر والده التاريخية، فبنى بعض المساجد، غير أن الدهر أخنى عليها فلم يبق لها أثرا.

فمن عماراته (مقبرة همايون) التي تم بناؤها بعد ثماني سنوات لوفاته، وقد شيدتها زوجته (حاجي بيجوم) تلك المقبرة التي كانت نموذجا

رائعا لطراز العمارة الفارسية في شكل البناء الهندي، ولهذه المقبرة عدة أبواب في جوانبها الأربعة، ولعل الباعث على ذلك هو زحام المتفرجين والمشاهدين الذين كانوا يأتون اليها زائرين، وفي داخل الضريح نوافذ عديدة يدخل منها النور والهواء إلى داخل المقبرة، وللضريح قبة تشبه القبب الموجودة في أواسط آسيا، فهي جميلة وجذابة وفي غاية الإتقان والأناقة.

عهد أكبر:

كان عهد (أكبر) الذي دام نحو خمسين سنة ٩٦٤ – ١٠١٥ هـ/ ١٥٥٦ – ١٦٠٥ م، من أحسن العهود التي أفضت على الهند نعمة الإسلام والتقدم والإزدهار، لقد جهل أكبر مدينة (أكرا) عاصمة له، ثم انتقل إلى (فتح بور سيكري)، وكان (أكبر) إمبراطورا عظيما يتمتع بالذكاء النادر والتفكير الصالح، فتقدمت الهند في عهده في النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفنية.

وقد استلفتت كثرة وجود الحجارة الحمراء في الهند تفكير هذا الملك فأتاح للبنائين الذين يحسنون النحت والزخرفة فرصة تقديم نماذج فنية رائعة، فبذل هؤلاء جهودا كبيرة في إظهار نبوغهم الفني، وبرزت آثارها في قصور أكرا ومباني (فتح بور سيكرى) وحصونها، فقصر أكبر في أكرا ينطبق فيه جمال البناء المحلي الهندي، إذ كان بناؤه من الحجر الأحمر، وله واجهة ورواق ذو أقواس مفصصة، وخلفها يقوم من الجانبين جوسقان

ترتكز بابهما على أعمدة نحيفة، وقد بقي هذا الشكل أحد العناصر الأكثر استمرارا في المنشآت المغولية الهندية.

وفي أكرا قصر بناه الملك أكبر لولي عهده (جهانكير) وهو من تصميمه، فجمع هذا القصر بين الطراز الهندي وروعة فن العمارة الإسلامية، فأصبح هذا المزيج رائد الطراز المختلط فيما بعد .

ومن مباني أكبر (قلعة لاهور) التي بناها على طراز (قلعة أكرا)، واستعمل الحجر الأحمر أيضا في البناء، وقد تجلت في هذه القلعة روعة الفن الهندي الإسلامي، ثم شيد أكبر حصونا كثيرة لتحصين ثغور البلاد منها (حصن أجمير) و(حصن الله آباد) للدفاع عنها.

فتح بور سيكري:

تخليدا لانتصاراته وفتوحاته العديدة بنى أكبر مدينة خاصة سماها (فتح بور سيكري)، وتقع هذه المدينة على مسافة ٣٠ ميلا من أكرا، وتحتوي على أكثر من ٣٠ عمارة تقوم في صف طويل ويحلق قلعتها سور منيع أقيم على بابها الرئيسي تمثال لخيلين منحوتين من الحجر، وتلي القصور الملكية بيوت الأمراء، تحفها بساتين وحدائق، وهنا في هذه المدينة بنى أكبر (الديوان الخاص) الذي يتوسطه عمود واحد يحمل السقف على ركائز من المقرنصات غاية في الورعة والجمال.

وبالقرب من (زاوية الشيخ الجشتي) بنى أكبر جامعا شامخا، تم بناؤه في خمسة أعوام، وينقسم الجامع من داخله بين درجات سبع، وتتألف

بوابة الجامع من قوس زورقي الشكل يرتفع ٢١ مترا ضمن إطار مستطيل يبلغ ارتفاعه ٣٦ مترا، ويتقدم البوابة درج عال، واستخدم في البناء الحجر الأحمر والأبيض. وفي قمة العمارة رواق مفتوح وجواسق ذات قباب، وأحيط الصحن بأروقة من جهاته الثلاث، ومن جهة القبلة نجد واجهة الحرم الثلاثية المحاريب، عليها ثلاث قباب فارسية الطراز، وينفتح وسط المصلى بواسطة إيوان عميق أشبه بإيوان مسجد الجمعة في أصفهان، وتبلغ مساحة المسجد ٣٩١×٢٩١ ميرا مربعا، وترتفع على ركني جداره الغربي منارتان جميلتان ذات زخرفة بديعة، وعدا هذه المباني بنى أكبر عمارات أخرى في فتح بور سيكري كالمستشفى والحمام والإصطبل ودار ضرب النقود، وساحة الصولجان، ومكتب خانة، ومقبرة وغيرها من المباني.

عهد جهانكير:

توسعت مدينة أكرا، ومدينة لاهور، وأصبحتا من المدن الجميلة في زمن (جهانكير بن أكبر) الذي حكم من سنة ١٠١٤ هـ/ ١٦٠٥ م إلى سنة ١٠٣٦ هـ/ ١٦٢٧ م، وكانت أعظم بناية في عهده (مقبرة أكبر) الواقعة في (سيكندرا) وهي القرية التي عمرها (سيكندر اللوري) وسماها أكبر (هشت آباد). تتوسط هذه المقبرة بستانا مربع يمتد كل جانب منه إلى ربع ميل، ويحتوي هذا البستان الواسع ٢٨٤ فدانا من الأرض مسورة من جوانبها الأربعة، ويتوسط كل حائط باب شامخ من الحجر الأحمر، وقد أغلقت كلها سوى الباب الرئيسي الواقع في جهة الجنوب، وهذا الباب غاية في الجمال، ترتفع على أركانه الأربعة مآذن من الرخام، وزينت الجدران

بالزخارف والكتابات المنحوتة بالحجر. وفي وسط البستان عمارة الضريح الشامخة ذات خمس طوابق، فالطابق الأول منها مربع الشكل طول كل ضلع ١٨٦ قدما، يتوسطه سرداب فيه قبر (أكبر) وفي هذا الطابق عدة أواوين اتخذت مقابر لعائلة أكبر، وفي الطوابق المتوسطة عدة أواوين وبروج مبنية بالحجارة، وكل طابق أصغر من الطابق الذي في أسفله، أما الطابق العالي الأخير فمبني من الرخام وهو غاية في الجمال والروعة، ويقع هذا الطابق على ارتفاع ١٠٠ قدما تقريبا، وفي الوسط صفات جميلة عليها أشكال التمائم من الرخام الشفاف ، وفي هذا الطابق شبابيك جميلة من الرخام عليها من النقوش والزخارف ما يأخذ بالألباب.

عهد شاهجهان:

حكم (شاهجهان) من سنة ١٠٣٧ – ١٠٧٦ هـ/ ١٦٢٧ – ١٦٦٦م، وقد أضفى على مدينة أكرا بدوره حللها وذلك ببناء قبر لزوجته (ممتاز محل) وقد ولع هذا الملك بالرخام فحول العمارات المبنية بالحجر الأحمر إلى بنايات من الرخام كقصر جهانكير وبنى (ديوان أكرا العام) من الرخام أيضا بعد أن هدم الديوان العام الذي شيد في عهد أكبر.

تبلغ مساحة هذا الديوان ١٩٢×٦٤ قدما، وهذه العمارة شامخة فخمة في جدارها الغربي رواق ذو ثلاث محاريب، يوضع فيه عرش الدولة عند المحاكمات وهو تخت من الرخام، ومقابل هذا العرش يجلس الوزراء على الجانبين، وقد بنى شاهجهان (ديوان خاص) من الرخام أيضا وهو

يتحلى بكمال التزيين وغاية الزخرفة، وفي مدينة أكرا أقام شاهجهان مسجداً بالغ الجمال أطلق عليه اسم مسجد لؤلؤة..

مسجد (موتى مسجد):

أنفق شاهجهان مبالغ طائلة في بناء هذا المسجد وهو يشغل مساحة من الأرض طولها **٢٣٤** قدما وعرضها **١٨٧** قدما، والبناء من الخارج من الحجارة الحمراء ومن الداخل بالرخام، وترتفع فوقه قبب جميلة متناسبة الحجم، وعلى كل ركن منارة، وتقع على جانبي المسجد والمصلى حجرات ذات شبابيك ولكنها خالية من كل لون من الزخرفة وهذا هو ميزتها البارزة.

تاج محل:

هذا البناء مأثرة من مآثر شاهجهان، وهو نموذج رائع لعمارة من الرخام، ففي سنة ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م، توفيت زوجة شاهجهان الملكة (ممتاز محل) التي تغير اسمها وأصبح (تاج محل) فصدع موتها قلبه، وفاضت منه دموع تمثلت فيما بعد في صورة بناء (تاج محل)._لهذا الضريح التذكارى قبة عالية تحتها قبران، واحد للزوجة وواحد للزوج، يحيط بالقبرين حاجز من المرمر الأبيض، نقشت فيه الزخارف نقشا رائعا بطريقة التخريم الدقيق حتى ليبدو وكأنه من المبدبج (الدانتيلا)، ويحيط بهذا المدفن حدائق رائعة تتقدمه صفحة مياه في بحيرة طويلة محاطة بالسرو، وتنهض في واجهة البناء بوابة عالية محلاة بالمقرنصات على طرفيها طابقان من الحنيات، وتعلو

الكتلة المثمنة قبة بصلية تحيط بها جواسق، كما تنهض في أركان السطح الذي يقوم عليه بناء المدفن أربع مآذن مخروطية منعزلة عن البناء.

ويشغل الضريح أرضاً مساحتها ١٨٦×١٨٦ قدما كلها من الرخام الأبيض الناصع، ويتصل به مسجد صغير لطيف الشكل والضريح في مجموعة يوحي بعبقرية بانية، ويبدو الطابع الإيراني واضحاً في واجهته وحدها، بينما يغلب الطابع الهندي في الأركان ومحيط القبة والأبراج أو المآذن الأربع.

عهد (**أورنك زيب**):

لم تنل العمارات التي شيدت في عهد (أورنك زيب) ١٠٧٩ – ١٢٠٠ هـ/ ١٦٦٨ – ١٧٠٧ م، إعجاب الناس واهتمامهم مثل ما نالت العمارات التي شيدت في عهد أسلافه أكبر وجهانكير وشاهجهان، فقد واجه أورنك زيب في عهده اضطرابات سياسية اضطرته على الإقامة في إمارة (حيدر آباد) – دكن – وهنا ماتت زوجته (رابعة دوراني) فأراد أن يقيم لها ضريحا على شكل تاج محل غير أنه لم ينجح في ذلك، وفي زمنه شيد جامع لاهور الفخم المعروف بـ (باب شاهي مسجد) سنة ١٠٨٦ هـ/ ١٦٧٤ م، وهو يشبه في كثير من آياته جامع دلهي الكبير.

الخلاصة:

لقد حاول المغول في الهند تمثيل حضارتهم الثقافية كلها في عماراتهم ومنها نستطيع تقدير تتلك الحضارة وتصوير مدى أذواقهم،

ووجهة نظرهم نحو الحياة والمجتمع، فمن الخصائص البارزة التي يحملها فن العمارة المغولية في الهند استعمال الحجارة الحمراء والرخام في البناء وتأسيس الحدائق والرياض، وصنع الشبابيك المزخرفة، والقباب المزدوجة ذات الرقبة العالية المخصرة، واستعمال الفسيفساء من المرايا في السقوف والأجزاء العليا للجدران، وتطعيم الرخام بمختلف الأحجار الشبيهة بالكريمة، وصناعة التخريم الدقيق في الرخام الذي يشبه (الدانتيلا).

وبختام هذا الموضوع نأتي إلى نهاية تاريخ تطور فن العمارة العربية الإسلامية حسب الفترات التاريخية الكبرى التي حددناها لها.

الفهرس